



د. جعفر نجم نصر

مقدمة في أنثروبولوجيا العولمة

الغرب من اقتصاديات الذات

إلى جغرافيا الآخر

رؤية تحليلية



مقدمة في أنثروبولوجيا العوامة



نحو فكر
حضاري متجدد

محمّد بن
يحيى

لدار

صفحات للدراسات والنشر

سورية - دمشق - ص.ب: 3397

هاتف: 00963 11 22 13 095

تلفاكس: 00963 11 22 33 013

www.darsafahat.com

info@darsafahat.com

ISBN الترميم الدولي

978-9933-402-52-5

الكتاب: مقدمة في أنثربولوجيا العولمة

المؤلف: د. جعفر نجم نصر

الإصدار الأول 2011 م

عدد النسخ: 1000 / عدد الصفحات: 120

الإشراف العام: يزن يعقوب / جوال 00963 933 418 181

الإخراج الفني: فؤاد يعقوب / جوال 00963 933 902 764

د. جعفر نجم نصر

مقدمة في أنثروبولوجيا العولمة
الغرب من اقتصاديات الذات
إلى جغرافيا الآخر
(رؤية تحليلية)



الإهداء

إلى.... روح معلمي الأكبر وأستاذي الأمهر

والدي العزيز

المحتويات

7	مقدمة.....
9	الفصل الأول: ملامح تشكل الوعي الغربي.....
11	مدخل عام.....
21	الفصل الثاني: المحددات المفاهيمية والنظرية للتحليل.....
46	الانتخاب الثقافي R- و K (رؤية فوج لنماذج الانتخاب) :
59	الفصل الثالث: جذور الاقتصاديات الغربية.....
61	الإقطاع وتداعياته.....
67	الحروب الصليبية والآخر:.....
69	تفكك الإقطاعية وبدايات الرأسمالية:.....
75	مسألة الآخر (أمريكا المكتشفة):.....
85	الفصل الرابع: الاقتصاد الرأسمالي
87	الغرب بين الثورة الصناعية والحركة الاستعمارية
91	اندلاع الثورة الصناعية:.....
95	الشركات العالمية والعالم الجديد (أمريكا):.....
102	الغرب بين استهلاك الطاقة وإنتاج الآخر:
107	إنتاج الآخر :
115	المصادر.....

مقدمة

ما زالت ظاهرة العولمة تتصدر معظم الكتابات المعاصرة وفي شتى المجالات الفكرية، ولكن الشيء اللافت للانتباه هو دخول الأنثروبولوجيا إلى ساحة التنظير والتحليل لتلك الظاهرة الكونية، على الرغم من كونه (Microanthropology) والمهتم أصلاً بالمجتمعات البسيطة وبالتوجهات المحلية والناجمة عن جذوره ومناهجه ومعالجاته الخاصة بأطره الضيقة النطاق.

وإزاء هذه التحولات العالمية الكبرى التي ترتبت على ظاهرة العولمة حاول بعض علماء الأنثروبولوجيا المعاصرين مراجعة أطرهم النظرية والاستفادة منها في تفسير جذور هذه الظاهرة وتداعياتها، وهذا ما فعله مثلاً الأنثروبولوجست الفرنسي المعروف جيرار ليكلرك في كتابه «العولمة الثقافية- الحضارات على المحك»، ولقد مضى ولف هانرز (Ulf Hannerz) أبعد من ذلك أذ صاغ مصطلح الأنثروبولوجيا الكبرى (Microanthropology)، فقد دافع من خلاله عن منظور تحليلي لا يرتبط طبيعياً بفرع علم الإنسان القادر على التعامل ليس فقط مع التوجه المحلي ولكن مع الاتجاهات المحلية والتدفقات والشبكات والعلاقات الأخرى أيضاً، وقد قال إن الأنثروبولوجيا الكبرى تعني أن: هناك نظرة شاملة معقولة لتماسك ديناميكيات الكيانات الاجتماعية والإقليمية الأكبر حجماً من تلك العناصر التي يتعرض لها علم الإناسة بشكل تقليدي⁽¹⁾.

وتأسيساً على ذلك كله، ومما سواها من أطروحات جديدة بالاهتمام، حاولنا مراجعة جذور تلك الظاهرة من خلال التركيز على نشأة أو تشكل الاقتصاد الغربي لاسيما من القرن العاشر الميلادي إلى

(1) ينظر:

Ulf Hannerz, (1989), Culture between center and Periphery: Toward a macroanthropology, Ethnos: vol. 54, pp. 200-216.

نقلاً عن: العولمة / المفاهيم الأساسية، تحرير: أنابيل موني، بيتسي إيفانز، ت: آسيا دسوقي، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط1، 2009م.

القرن التاسع عشر، وذلك على اعتبار أن العولمة هي غريبة المنشأ والصيرورة وتلازمت مراحلها (النشأة- التحول- التمدد) مع طبيعة مناخها الاقتصادي- والثقافي- والسياسي الغربي بشكل خاص.

ولقد انطلقنا من مجموعة من التساؤلات حاولنا الإجابة عنها في هذا البحث وهذه التساؤلات هي:

هل أن كل نمو اقتصادي يتحقق للذات الغربية وتحت أي عنوان كان وبأي مستوى خاص به يستتبع بالضرورة حركة نحو «الآخر» أيًا كانت جغرافيته ؟ وبعبارة أخرى: هل يفرض النمو الاقتصادي توجهاً نحو الهيمنة؟ وهل أيديولوجيا الاقتصاد الغربي تفرض ذلك النزوع ؟ كيف يمكن تحليل العقل الأوروبي - الاقتصادي أنثروبولوجياً؟ ولماذا أنثروبولوجيا العقل الأوروبي في تلك المراحل التاريخية كانت متوجهة إلى (الآخر) باعتباره نتاج الكشف الاقتصادي وأحد اكتشافاته الإنسانية؟ ولماذا كانت أنثروبولوجيا تحليل الذات الغربية بالنسبة لهم غائبة أو مغيبة، فهل الأنثروبولوجيا هي علم الآخر بالنسبة لهم لا علم الذات ؟ وإذا كان الغرب يمتلك وعياً معرفياً (عصر الأنوار)، فلماذا كان وعيه وسلوكه في التعامل مع الداخل (مجتمعه) متناقضاً مع سلوكه أثناء تعامله مع الخارج الآخر؟.

وهل العولمة ظاهرة تاريخية ملازمة لطبيعة النمو الاقتصادي لأي حضارة أم هي وقف على الحضارة الغربية فحسب وطبيعة مسارها الحضاري ؟ أم أن العولمة ظاهرة موجهة اقتصادياً؟ وهل هي بعبارة أخرى الوجه الآخر للرأسمالية الغربية؟.

على العموم سنحاول في هذا البحث وضمن متون فصوله الإجابة عن مجموع هذه التساؤلات، عبر الوقوف على بعض الملامح الرئيسة لتاريخ الغرب الاقتصادي وصلته بظاهرة العولمة ونشوتها، وما يتصل بذلك كله من اكتشاف الآخر وما تبع ذلك من آليات تعامل متنوعة معه، وكل هذا تجري متابعتة ويجري تحليله ضمن بعض الرؤى والتفسيرات الأنثروبولوجية التي تتلاءم وموضوع البحث.

الفصل الأول

ملامح تشكّل الوعي الغربي

مدخل عام

إن الحديث عن تشكل الغرب اقتصادياً يستدعي الوقوف عند بعض الجوانب الرئيسة في جذور هذا التشكل الذي اعتمد على تحولات كثيرة أبرزها تحولات الوعي وانبعاس فكر جديد (الأيديولوجيات) ومعرفة جديدة (النزعة الرياضية للتفكير)؛ إذ إن الوقوف على هذه المعطيات إنما يمثل حجر الزاوية الرئيس في فهم العقل الغربي ومحدداته وآلياته ليس في التعامل مع أنظمتها الاجتماعية فحسب، بل في التعامل مع العوالم المحيطة، وما يتصل بذلك من حيثيات مسألة الآخر (المستكشف أو المستعمر) على حد سواء، وسنركز في هذا المدخل وعلى عجلة على تحولات الوعي وسنرجى الحديث عن طبيعة الأنظمة الاقتصادية إلى متون المباحث القادمة.

إن أوروبا إحدى القارات التي ورثت الحضارات التي ازدهرت على ضفاف المتوسط : روما، بيزنطة، الإسلام. ثم إنها كانت أيضاً أكثر المناطق وقوعاً عند أطراف هذه الإمبراطوريات : فالإسلام وبيزنطة كانا حضارتان أكثر قرباً إلى المركز⁽¹⁾. ولكن الحضارة الغربية وفي إشارة لأحد الباحثين بدأت تأخذ شكلها بالتدريج بين عامي 750/370م من خلال مزج عناصر الثقافة الكلاسيكية والسامية والعربية والبربرية؛ استمرت فترة الحمل من منتصف القرن الثامن إلى نهاية القرن العاشر، تبعتها حركة غير مألوفة بين الحضارات، إلى الأمام وإلى الخلف بين مراحل تمدد ومراحل صراع⁽²⁾.

ففي مراحل الصراع تلك مثلاً لا حصراً نجد أن ظهور الإسلام وسرعة انتشاره في القرنين السابع والثامن غيرا إلى الأبد الجغرافيا

(1) جيرار ليكلرك، العولمة الثقافية / الحضارات على المحك، ت : د. جورج كتورة، دار الكتاب الجديد المتحدة، طرابلس، الجماهيرية العظمى 2004م، ط1، ص73.

(2) صاموئيل هنتغتون، صدام الحضارات / إعادة صنع النظام العالمي، ت : طلعت الشايب، القاهرة، كتاب سطور، 1998م، ص488-489.

السياسية والدينية لحوض المتوسط، لم يعد المتوسط (بحرنا) كما يشير أحد المفكرين الغربيين، بل أصبح مكان التقاء الشرق - الغرب⁽¹⁾، وعلى الرغم من هذا الالتقاء والتأثير الواضح والمؤكد للإسلام على الغرب، إلا أنه وعلى حد تعبير الكاتب المعروف حسن حنفي: كان ينظر إلى الإسلام على أنه خارج الوعي الأوروبي، أقرب إلى الشرق منه إلى الغرب مع أنه انتشر في الغرب قدر انتشاره في الشرق، انتشر في ربوع أوروبا، في الأندلس، وجنوب فرنسا، وجنوب إيطاليا وصقلية وكريت واليونان وقبرص وأوروبا الشرقية⁽²⁾.

ولعل تشديدنا على مسألة حضور الإسلام السياسي والثقافي والجغرافي ضمن سياقات أطوار تشكل الغرب اقتصادياً، إنما له مدعاة كبيرة تتجلى في معطى رئيس ألا وهو أن الإسلام يعد الآخر، الأكثر حضوراً في ذاكرة ومتخيل الغرب وبشتى تضميناتها، لاسيما أنه يمثل الآخر الأكثر مفارقة ومغايرة له في كل شيء؛ بل وبوصفه العدو التقليدي الذي يلبس وجوهاً تاريخية عدة على حسب زعمهم من الوجه الإسلامي الأول (النظام السياسي الخلافي) مروراً بوجه الممالك والدويلات الإسلامية المتنافسة وعصر بروز الخلافة العثمانية، وانتهاء بوجه الأصولية الإسلامية الحديثة والمعاصرة المناهضة للغرب ورأسماليته الاقتصادية وحداثيته الثقافية والسياسية والاجتماعية.

وهذا الآخر الآسيوي/الإسلامي، بخلاف الآخرين الصينيين واليابانيين والهنود، الذين وإن دخلوا مع الغرب في منافسات اقتصادية حيناً، وصراعات عسكرية حيناً آخر، إلا أنهم لم يستطيعوا (وحسب وجهة النظر الغربية) أن يسلبوا الغرب مركزيته التي سلبت في مرحلة ما

(1) ينظر د. بشارة خضر، أوروبا والوطن العربي (القراية والجوار)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 1993م، ص24.

(2) د. حسن حنفي، مقدمة في علم الاستغراب، الدار الفنية للنشر والتوزيع، القاهرة، 1991م، ص140.

من قبل المد الإسلامي، لاسيما بعد القرن الثامن الميلادي، إضافة إلى أن الصينيين واليابانيين والهنود كانوا أقرب إلى الحضارات المنغلقة على ذاتها والمنكفئة على منجزاتها ولم تكن بحاجة إلى (الآخر) للتنافس أو التصارع معه لقناعتها بعظمة ما تمتلك، ولم تحدث فيها تحولات بخلاف ذلك إلا في غضون بدايات القرن العشرين.

ويرى عالم الأنثروبولوجيا الفرنسي المعروف جيرار ليكلرك بخصوص هذه الحضارات آنفة الذكر رأياً مفاده : يمكننا أن نتصور العلاقات بين الحضارات الأوروبية - الآسيوية الكبرى باستخدام عبارات الانتشار المفاجئ/الانبجاس المفاجئ، يتضمن تاريخ الإسلام (وقبله بيزنطة) بعض معالم الانتشار المفاجئ (التوسع العنيف) لحقه فيما بعد انبجاس أو تفجر داخلي (وهذا ما نطلق عليه اسم الركود). أما الصين وعكس أوروبا، فقد تمثلت وطيلة القرون التي استمرت فيها عزلتها بالنسبة إلى أجزاء العالم الأخرى كل معالم الانبجاس الضخم (مركز ضخمة للطاقة، خلق كثافة سكانية بشرية واقتصادية لم يسبق إن شاهدنا مثيلاً لها)، وبعد انفتاحها وتأثير الغرب تشهد الصين انتشاراً سكانياً في كل أرجاء آسيا، بل في العالم كله، أما اليابان التي أصبحت القوة الاقتصادية الثانية في العالم، وبعد أن حاولت دون جدوى السيطرة عسكرياً وسياسياً على جنوب شرق آسيا، فهي الآن تظهر بصورة انتشار لا يمكن لها أن تعرف كل مفاعليه⁽¹⁾.

وعوداً على مسألة تحولات الوعي لاسيما الإصلاحي والفلسفي منه، نجد أن القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين يمثلان النقلة الحقيقية في الفكر الغربي عموماً، لأنه أحدث بدايات الثورة والرفض لمعالم القرون الوسطى لاسيما الفكرية منها والذي سمي بعصر الإصلاح الديني، وعصر النهضة أو الأنوار. وبعبارة أخرى وعلى حد

(1) جيرار ليكلرك، المصدر السابق نفسه، ص 68.

تعبير حسن حنفي، يمثل هذا العصر تحولاً من القرون الوسطى إلى القرون الحديثة، وكما هو شائع في كتب تاريخ الفلسفة الغربية وكأن الانتقال من الدين إلى العلم أو من القديم إلى الجديد أو من الله إلى الإنسان أو من السلطة إلى العقل أو من الماضي إلى المستقبل لا يأتي إلا بعد المرور بمرحلة متوسطة تنشأ فيها هذه المعركة، حتى يتم الانتقال طبيعياً في الوعي الأوروبي دون قفز أو انكسار وحتى لا يحدث نكوص أو تقع ردة⁽¹⁾.

وبعبارات موجزة ومكثفة يرى المفكر كرين برينتون : إذا ما استثنينا الكاثوليك الرومانيين نجد أن جمهرة الأمريكيين الذين درسوا قدراً من التاريخ الأوروبي خرجوا من دراستهم هذه بفكرة مفادها أن الحركتين اللتين نطلق عليهما اسم الإصلاح البروتستانتي والنهضة كانتا تقريباً سواء من حيث الإسهام والهدف، استهدفت إحداها الحرية الدينية بينما استهدفت الأخرى الحرية الفنية، وعملتاً معاً من أجل الحرية الأخلاقية، وكذلك، بطبيعة الحال من أجل ما أصبحنا نطلق عليه في القرن التاسع عشر اسم الديمقراطية. لقد استهدفتا معاً تحرير العامة رجالاً ونساء من القيود التي تكاثفت التقاليد والخرافة على فرضها عليهم خلال العصور الوسطى⁽²⁾.

ولقد أدت نجاحات حركة الإصلاح البروتستانتي الدينية في القرن السادس عشر إلى قيام الكنيسة الكاثوليكية بشن هجوم عنيف ضد تلك الحركة، وكان رد الفعل ضد لوثر على أشده، وكان الصراع في أوروبا على السلطة مريعاً، وفي عام 1622م أسس الفاتيكان مؤسسة مهمتها نشر الكاثوليكية والدعاية لها⁽³⁾.

(1) د. حسن حنفي، المصدر السابق نفسه، ص228.

(2) كرين برينتون، تشكيل العقل الحديث، ت : شوقي جلال، مكتبة الاسرة، طبع هيئة الكتاب المصري، 2002م، ص19-20.

(3) ج. برونوفسكي، ارتقاء الإنسان، ترجمة د. موفق شخا شير، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ع (39)، مارس (آذار) 1981م، ص155.

في ظل هذه الأحداث، وغيرها من الاضطرابات الفكرية، بدأت الكنيسة تتخذ موقفاً متشدداً، فقبل ذلك بخمسين عاماً كانت الكنيسة على استعداد لقبول التقويم السنوي باعتباره متصوراً خيالياً ملائماً ولا يمس بسوء تدبير الله، وإنما يغير فقط من إدراك الإنسان له، بيد أن الأمر اختلف الآن، في زمن غاليلو، وخشيت الكنيسة أن يفسر السذج نظرية «مركزية الشمس» الجديدة، بما يلغي قوانين الكنيسة كلها! فلهذا شرعت باستخدام العنف بشتى أنواعه لمواجهة العلماء والمفكرين وأتباعهم الذين تسمهم بميسم الهرطقة والكفر كيما يسهل عقابهم فيها بعد⁽¹⁾.

وإذا كان عصر الإصلاح الديني والنهضة قد أسهما في انبجاس وتولد ذات غربية تملك مرجعيات أو أطراً فكرية جديدة تمارس من خلالها علاقتها مع الذات الأخرى، ضمن مناخ اجتماعي وسياسي جديد يضبط ويوجه العلاقات بين الحاكمين والمحكومين هذا من جهة، ويحدد ويفرز أو يفصل المؤسسات الدينية - المدنية (الدولة) عن المؤسسات الأخرى - الدينية (الكنيسة) ويحدد سلطات كل منهما، إضافة إلى أن هذه المرجعيات منحت مناخاً ثقافياً جديداً للحركة الفنية بكل جناتها؛ ومنحت في الوقت نفسه للذات سلطة العقل وحرية التفكير والنقد.

وعلى الرغم من ذلك كله، فإن الآخر ظل حاضراً وبقوة في فكر وأعمال عصر النهضة، لكونه يعبر عن مجالات جديدة لحرية الذات في البحث عن ذلك الآخر (أياً كان) وعن كينونته المجهولة، وخصوصاً بعدما خرجت تلك الذات الغربية من نطاق أو مجال الأجوبة الكنيسية الجاهزة عن الإنسان المغاير أو المختلف.

ولقد وجد الأنثروبولوجست حسين فهمي أن أحد الإسهامات الرئيسة لعصر النهضة هو إسهامه في تكوين الأنثروبولوجيا ونشأتها، ففي هذا

(1) ينظر: جيمس بيرك، عندما تغير العالم، ترجمة: ليلى الجبالي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت ع (185)، مايو (أيار) 1994م، ص 189.

العصر يرى، أنه قد : ظهرت المدونات والكتابات الكثيرة في أدبيات الرحلات التي زخرت بمعلومات عن حياة الشعوب غير الأوروبية. وقد ساعد اكتشاف الطباعة في ألمانيا، وظهور أول كتاب مطبوع عام 1457م على رواج تلك المؤلفات وشيوع ما بها من معلومات⁽¹⁾. ثم يستدرك فهم حول طبيعة هذه المدونات والمعلومات قائلًا: وجدير بالذكر أن تلك الأدبيات لها نقائصها المنهجية من ناحية جمع المادة وعرضها، إلى جانب تركيز مؤلفيها على تقديم غرائب الأشياء وإضفاء الأحكام التقويمية عليها، مما جعل غالبية ما ورد بها من مادة إثنوجرافية تتصف بالتحيز الثقافي كما تعكس الاستعلاء العنصري⁽²⁾.

ومع ذلك، فقد فتحت تلك الأدبيات بما فيها من قصص للرحالة ووصف للأقاليم والشعوب غير الأوروبية، عقول أوروبا على العالم الخارجي، ومثلت أمامهم حقيقة التنوع الهائل للجنس البشري، سواء في أوصافه الجسمية، أو في نتاجه الحضاري. الأمر الذي جعل المؤرخ الفرنسي ميشليه Michelet (1798-1874م) يصف عصر النهضة بأنه «كشف للعالم والإنسان»⁽³⁾.

وبخط مواز أو في قبالة الوعي الإصلاحي والفلسفي آنف الذكر، ظهر الوعي العلمي والتقني في القرن السادس عشر كذلك، ذلك الوعي الذي حاول جاهداً إعادة رسم معالم المنظومة المعرفية أتجاه الطبيعة والكون عبر استحداث العقل الرياضي في التفسير أو (رؤية رياضية للعالم) على حد تعبير المفكر داريوش شايعان، الذي يجد أن هذه الرؤية أخضعت الطبيعة لقوانين الحركة الرياضية الميكانيكية، وأصبح الله بذلك كائنًا قديراً ولكن لا علاقة مباشرة له بالعالم، في حين أن كتاب الطبيعة يكتب بأحرف رياضية⁽⁴⁾.

(1) د. حسين فهميم، قصة الأنثروبولوجيا/فصول في تاريخ علم الإنسان، سلسلة عالم المعرفة/الكويت، عدد (98)، فبراير/شباط، 1986م، ص80-81.

(2) المصدر السابق نفسه، ص81.

(3) المصدر السابق نفسه، ص81، ولتفاصيل أكثر ينظر المصدر نفسه، ص81-108.

(4) داريوش شايعان، ما الثورة الدينية/الحضارات التقليدية في مواجهة الحداثة، ت: د. محمد الرحموني، دار الساقى، بيروت، ط1، 2004م، ص100.

وبذلك يكون الغرب قد انتقل من التفسير الروحي إلى التفسير العلمي لماهية الوجود والطبيعة، بعبارة أخرى انتقل من (روحنة العالم إلى ريسنتته)، عبر تطبيق القواعد الرياضية في الفلك والكيمياء والفيزياء أو ما يطلق عليها (الفلسفة الطبيعية)، والتي عد من أبرز أعلامها ديكارت وسبينوزا ولا يينتز، إضافة إلى أشهر علماء الفلك أمثال غاليلو⁽¹⁾.

وعلى الرغم من أن هناك براهين أكثر حداثة يقدمها مؤرخون على أن التنوير متنوع جداً بين البلدان، وكذلك الأفراد، حتى إنه لا يكشف عن حقيقة اللفظ المفرد، فإن التنوير لا يزال في الأغلب يرتبط باستمرار بالفرنسيين، ولا تزال عبارات الخطاب هي تلك التي جعلها الفلاسفة الفرنسيون مألوفة، وإن هذا الأمر محير، إن السبب الأكثر وضوحاً وجلاءً هو التحقق الوجودي، أو تحقق التنوير الفرنسي (أو كما يبدو للمعاصرين حينئذ، ومؤرخين كثيرين بعدئذ) في أحد أحداث الحداثة الأكثر تأثيراً الثورة الفرنسية، التي نُظر إليها إلى حد بعيد (حينئذ وبعدئذ) على أنها بداية العالم الحديث⁽²⁾.

ومع ذلك، فإنه يمكن أن يقال إن الجمهورية الأمريكية كانت أيضاً نتاج «الفكر» مع أنه نوع مختلف من الفكر، لقد نجح الأمريكيون بنشر «علم جديد للسياسة» في خلق، أو في «إيجاد»، والكلمة نفسها هي أمر ملحوظ، الجمهورية الأولى القابلة للتطبيق في العصور الحديثة، وهيغل نفسه مدين لأمريكا من حيث إنها ظاهرة «تاريخية عالمية» ويقول: أمريكا هي، بالتالي، أرض المستقبل، فها هنا سوف ينكشف في العصور المقبلة عنصر مهم من عناصر تاريخ العالم «إن أرض المستقبل»

(1) للتفاصيل أكثر ينظر كتاب: كرين برينتون، المصدر السابق نفسه، ص70-111.

(2) غيرترود هيملفارب، الطرق إلى الحداثة، التنوير البريطاني والتنوير الفرنسي والتنوير الأمريكي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ع (367)، سبتمبر 2009، ص11.

كما يرى، لم تدن بشيء للفرنسيين، ودانت بالكثير للإنجليز، الذي أتاح دستورهم لها الفرصة بأن تصمد وسط الاضطراب العام العنيف»⁽¹⁾.

وعلى صعيد آخر، فعلى الرغم من ألفة البريطانيين والفرنسيين ومعرفتهم الشخصية الوثيقة بعضهم ببعض، وبأعمالهم، فإنهم اختلفوا أتم الاختلاف في روح تنويرهم الخاص بهم، وماهيته. فالبريطانيون قد تعاطفوا مع عداوة الفلاسفة الفرنسيين للكنيسة «البابوية» والملكية الاستبدادية، فهم أنفسهم قد نبذوهما، والفرنسيون أعجبوا بالحرية الدينية والسياسية اللتين وجدوهما في إنجلترا، واللتين تاقوا إليهما كثيراً، بيد أن كلاً من البريطانيين والفرنسيين سعوا من أجل تحقيق التنوير، لأنفسهم ولمواطنيهم، بطرق تختلف أتم الاختلاف. فماهية التنوير في فرنسا، أو حرفياً سبب وجوده - هو العقل، ومع ذلك لم يكن هذا هو التنوير كما ظهر في بريطانيا وأمريكا حيث لم يكن للعقل هذا الدور البارز، وحيث لم يكن الدين، من حيث إنه عقيدة، أو من حيث إنه مؤسسة، العدو الأسمى، لقد كان التنويران البريطاني والأمريكي متسامحين ومنسجمين مع تشكيلة واسعة من الإيمان والكفر. لم يكن هناك نزاع بين الحكومة المدنية والسلطات الدينية في هذين البلدين لصرف عامة الناس، وتقسيمهم وإثارة الماضي ضد الحاضر، ومواجهة العاطفة المستنيرة بالذاتير الرجعية، وخلق فجوة لا يمكن سدها بين العقل والدين. على العكس، كان تنوع الطوائف الدينية نفسها تأكيداً للحرية، وكان في الأغلب، أداة للإصلاح الاجتماعي، وكذلك للخلاص الروحي»⁽²⁾.

ولم تكن القوة الحافزة للتنوير البريطاني العقل، بل «الفضائل الاجتماعية»، أو «العواطف الاجتماعية»، وفي أمريكا، كانت القوة

(1) المصدر السابق: ص 12.

(2) ينظر: المصدر السابق نفسه، ص 22 23.

الحافزة هي الحرية السياسية والباعث على الثورة، والأساس للجمهور، بينما كان العقل، بالنسبة إلى فلاسفة الأخلاق البريطانيين، وبالنسبة إلى المؤسسين الأمريكيين، أداة لبلوغ الغاية الاجتماعية الأكثر اتساعاً، ولم يكن الأداة ذاتها، وكان الدين، بالنسبة إلى كل منهما، حليفاً، وليس عدواً. وعلى هذا الأساس خلص الباحث هيملفارب إلى أن التنوير البريطاني يمثل «سوسيولوجيا الفضيلة»، ويمثل التنوير الفرنسي «آيديولوجيا العقل»، ويمثل التنوير الأمريكي «علم سياسة الحرية»⁽¹⁾.

(1) المصدر السابق نفسه، ص 23 24.

الفصل الثاني
المحددات المفاهيمية
والنظرية للتحليل

لقد اعتمدنا في الباحث دمج أو جمع المفاهيم مع الأطر النظرية المحددة أو الموجهة في التحليل والتفسير. وذلك لاعتبارات مهمة ورئيسية، إذ أن المفاهيم حالها حال الأطر النظرية تعد وسائل وأدوات معينة في التفسير والتحليل، بعبارة أخرى إن المفاهيم بمثابة مفاتيح لأي تحليل اجتماعي عموماً أياً كان، لكونها تساهم في دراسة شتى الوقائع الاجتماعية لكشف غوامضها وتفسير جذورها وحركيتها ومراميها أو (غاياتها).

وعلى حد قول المفكر اللبناني علي حرب : إن المفاهيم ليست كيانات ما وراثية معزولة عن الوقائع، وإنما هي وقائع تختزن إمكاناتها وترك أثرها ومفاعليها على صعيد من الصعد، بقدر ما تخلق وسطاً أو سياقاً أو حقلاً أو صيغة أو معادلة أو قيمة، ولذا فهي لا تصح بذاتها ولا تنطق بالحقيقة العارية، وإنما هي علاقتها المتغيرة بالواقع والحقيقة، أي هي شبكات تحويلية وليست مرايا عاكسة⁽¹⁾.

وبالتالي : فالبحث الأبنيمولوجي أو السوسولوجي يحاول الوصول إلى مكنونات الأشياء بغض النظر عن أسماء المفاهيم التي تصنف في ظلها، والتي تبقى مجرد أدوات لتحديد المعنى وليس غايات بذاتها⁽²⁾، ولا يخرج عن هذا السياق حسب اعتقادنا البحث الأنثروبولوجي بطبيعة الحال.

ومفاهيم الدراسة هي : الحضارة «Culture»، مركز الذات أو التمرکز العرقي أو الإثني «Egocentricity»، التثاقف «Acculturation»، الاستعمارو المركز والأطراف، العولمة «Globalization»، والتي نجد فيها المحدد أو الموجه التحليلي الأعمق من الأطر النظرية الأخرى الممثلة بـ الانتشارية «Diffusionism» (المدرسة الانتشارية) والمدرسة التطورية، ولكن مع ذلك سنستعين بعض الشيء بهذه الأطر النظرية.

(1) علي حرب، تواطؤ الأضداد، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط1، 2008 م، ص61.

(2) د. تركي الحمد، حين تختلط المفاهيم، مجلة قضايا إسلامية معاصرة، العددان : 24-25 صيف وخريف 1420هـ-2003م، مركز دراسات فلسفة الدين والكلام الجديد، بغداد، ص35.

ما زال الكثير من الأدبيات الأنثروبولوجية المعاصرة تبدأ حديثها حول «Culture» بتعريف إدوارد تايلر (E. Tylor) (1832-1917)⁽¹⁾ بوصفه التعريف الأقدم والأشمل في تضميناته والتي يقول فيها، إنها ذلك المجموع المعقد الذي يتضمن المعارف والمعتقدات والفن والحقوق والأخلاق والأعراف وسائر القابليات والعادات التي يكتسبها الإنسان بصفته عضواً في مجتمع ما، ومن دون الدخول في الاختلافات والمناكفات الفكرية التي حاولت إيجاد تفرقة صارمة بين الثقافة والحضارة بين المدرسة الألمانية والفرنسية في القرن التاسع عشر والقرن العشرين من خلال تأكيدها على أن الحضارة تشمل العوامل المادية والتقنية، والثقافة تحتوي على القيم والمثاليات والخصائص العقلية والفنية الأخلاقية العليا للمجتمع⁽²⁾.

إلا أن الغالبية العظمى من علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا تتجنب استعمال مصطلح «حضارة» أو تستخدم مصطلح «ثقافة» بمعنى حضارة ترى أن الاثنتين (ثقافة وحضارة) من الممكن أن تحل إحداها محل الأخرى، وهكذا فإن الإثنولوجي الفرنسي كلود ليفي شتراوس يتحدث عن : الحضارات البدائية متبعاً في ذلك تايلور الذي على الرغم من إعطائه أحياناً للاصطلاحين معاني مختلفة، إلا أنه كان يستعمل التعريف الواحد نفسه للثقافة وللحضارة⁽³⁾.

وعلى العموم يمكن لنا إيجاز أبرز تعريفات علماء الأنثروبولوجيا لمفهوم الثقافة «Culrure» ومعانيه، على النحو الآتي: كروبر وكلاكهون (A.L. Kroeber , C. Klukhohn) يقدمان رؤيتهما المؤكدة على العناصر

(1) Conrad phillip Kottak , Cultural Anthropology , published by: M C Graw – Hill , America , eleventh edition , 2006 , p. 63 .

(2) ينظر دنيس كوش، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ت : د. منير السعيداني، المنظمة العربية للترجمة، ط1، 2007م، ص14-27.

(3) د. عبد الغني عماد، سوسيولوجيا الثقافة، المفاهيم والإشكاليات - من الحداثة إلى العولمة، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 2006م، ص34 35.

الإيجابية المقبولة لدى معظم علماء الاجتماع المعاصرين فيقولان : الثقافة تتألف من أنماط ظاهرية وباطنية لسلوك المكتسب والمتحول بواسطة الرموز المكونة للإنجازات «Chievements» الواضحة للمجاميع البشرية، وفي تضميناتها إن التقليدية هي النواة الجوهرية لمحتويات الثقافة والتي أنتجت واستنتجت من الأفكار، وعلى الخصوص التي ألحقت أو ضُمَّت للقيم، الأنظمة الثقافية من جهة أخرى هي عناصر مشترطة مساعدة للفعل. أما ليفي شتراوس (C. Levi Strauss) فيعرف الثقافة بكونها : مجموعة من الأنماط السلوكية السائدة بين جماعة من البشر في مدة زمنية محددة⁽¹⁾.

ولقد رفض المفكر الفرنسي المعروف فرنان بروديل (الذي تمثل أطروحاته مرتكزاً مفاهيمياً وتحليلياً لهذا البحث) الطريقة الألمانية التي فصلت الثقافة عن أساسها الحضارة، إذ إن كلاً من الحضارة والثقافة يشيران لديه إلى نمط الحياة العام للبشر، وما الحضارة إلا ثقافة كتبت بحروف كبيرة؛ إذ إن كليهما تضمنان القيم والمبادئ والمؤسسات وأنماط التفكير، التي تعطي لها الأجيال المتعاقبة في مجتمع ما أهمية وألوية؛ فالحضارة بالنسبة إلى برودل : «فضاء»، لا مساحة ثقافية، إنها توليف من خصائص وظواهر ثقافية⁽²⁾، ولقد اعتمد صموئيل هنتغتون على أطروحات بروديل تلك، إضافة إلى مجموعة أخرى من المؤرخين والفلاسفة الذين استند إليهم وذلك ضمن سياقات كتابه صدام الحضارات⁽³⁾.

ففي ظل هذا الفضاء والمساحة الثقافية التي يشير إليها بروديل يمكن لنا أن نتيين المسار العام لتكون وتشكل الذات الغربية لاسيما

(1) Gould J. and Kdb , W.L. Adictionary of Social Sciens es , printed , U.S.A Collier , Macminan , Ca uda Ltd , Copyright , 1965 , p. 165 .

(2) ينظر : د. عبد الغني عماد، المصدر السابق نفسه، ص36.

(3) ينظر : صموئيل هنتغتون، المصدر السابق نفسه، ص67-69.

التشكل الاقتصادي منه خصوصاً، وبالتالي تحركها نحو مجالات الآخر المتنوعة، وفي الفصول القادمة سنحاول كشف ذلك، ولكن ما يعيننا هنا الآن تلك الأفكار أو الطروحات المهمة التي يؤسس عليها جيرار ليكلرك تحليلاته فيما بعد؛ ففي هذا السياق نجد أن الحضارات لدى بروديل هي عبارة عن ثقافات كبيرة، إنها، إذا صحَّ القول، «جزئيات» بنيت انطلاقاً من مواد أولية من ذرات هي «الثقافات» : والثقافة لديه هي حضارة لم تبلغ بعد حد النضج، لم تبلغ أوجها، أو لم تحقق نموها بعد وفي الانتظار، وهو انتظار قد يطول، تقوم الحضارات المجاورة باستغلالها بألف طريقة وطريقة⁽¹⁾.

ويعقب ليكلرك قائلاً: وهكذا استغلت الحضارة الأوروبية ثقافات آسيا، بوساطة وكالاتها قبل أن تنتصر على حضاراتها الكبرى وتسيطر عليها. وهكذا استعمرت أوروبا الثقافات والمجتمعات الصغرى في أفريقيا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، إن القاعدة العادية هي «أن تقوم الحضارات بالمغامرة وأن تربح»، أي أن تتغلب على الثقافات⁽²⁾.

وهنا أوضح ليكلرك شكل الصراع، أنه بين الحضارات والثقافات، على الرغم من انطلاقه من بعض أطروحات بروديل المؤكدة على أن الثقافات هي جزء من الحضارات؛ ولعل مدعاة ذلك هو «مرحلة النضج» التي لم تبلغها بعض الثقافات كما ذهب إلى ذلك بروديل نفسه فيما تقدم؛ فكأنما من امتلك الحضارة الناضجة أصبح مؤهلاً لاستغلال «الآخر» لأنه تجاوز بالضرورة مرحلة التركيز على الجانب المعنوي، وطور إلى جانبه المنجز المادي بكل تجلياته الذي لا بد أن يكون في طليعته هنا المنجزات العسكرية، قوة بشرية - مدربة - منظمة - مؤهلة ومجهزة عسكرياً يسهل لها التحرك نحو جغرافيا الآخر «غزو المكان»، ولعل هذا التحرك يتطلب للحضارة عمراً وديمومة منجزة.

(1) جيرار ليكلرك، المصدر السابق نفسه، ص39.

(2) جيرار ليكلرك، المصدر السابق نفسه، ص39.

فمن ضمن خصائص الحضارة وسماتها يستنتج بروديل سمتين مهمتين من خلال جولته الموعلة في القدم على ضفاف البحر المتوسط أولاهما : أن الحضارات حقائق ذات ديمومة طويلة جداً. والسمة الثانية: أنها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمجالها الجغرافي. ثم يحدد الحضارة الأقوى: ومن المؤكد أن أقواها والمنتصرة بينها هي التي تنفذ في أغلب الأحيان إلى الأضعف، فتستعمرها وتقيم فيها معسكراتها ومراكز قيادتها؛ ولكن مغامرتها هذه تفشل على المدى الطويل⁽¹⁾.

ولكنه لا يفتأ أن يقيم استثناءات لذلك الفشل مؤكداً على خطورة التكوين السيء لأي حضارة تزيج معاملها ومنجزاتها أمام الآخر، إذ يقول : والاستثناءات تؤكد القاعدة، فإن تنتصر روما في بلاد الغال، وقرطاجة في أفريقيا عن طريق التسلسل، وأوروبا في أمريكا، هو أن حضارة سيئة التكوين إلى أبعد الحدود أدخلت المكان في كل مرة للدخيل⁽²⁾.

ولكن أليست هذه العلاقة القائمة بين الحضارات والثقافات (صاحبة الحضارة غير الناضجة) تفرض معاملها الجغرافية الجديدة عبر إنشاء مركز حضاري مهيم واطراف أو تخوم من (المستعمرات) المطيعة والتابعة لهذا المركز، وعلى كل المستويات ولعل أبرز ما يطل في تلك العلاقة مسألة (العرقية أو الإثنية) لإقامة المفاضلات أو الأفضليات بين الشعوب، لأنها حسب رأيه هي التي منحت ملكة السيطرة على العالم وإدارته.

لعل التعرف عن كثب على مفهوم «Egocentricity» ثمركز الذات الذي هو أحد منابع التمرکز العرقي سيهسل علينا فيما بعد معرفة طبيعة الآثار المترتبة على شعور حضارة ما بتفوقها وعظمتها أو أفضليتها على بقية الحضارات الأخرى.

(1) فرنان بروديل، البحر المتوسط/المجال والتاريخ، ت: يوسف شلب الشام، دار التوحيد للنشر، حمص، ط2، 2001م، ص171.

(2) المصدر السابق نفسه، ص171 172.

لقد استمد مفهوم التمرکز مكوّناته من الدلالة المباشرة (Egocentricity) التي تفترض غلبة وجهة نظر الذات وصوابها وهي متصلة بعالم الطفولة، إذ تتجلى الأنانية المفرطة التي توافق مرحلة من نمو الطفل تجعله يركّز العالم من أناه، لأن وجدانه لا يتفتح على الآخرين إلا بقدر ما يكون هؤلاء مجموعة من العناصر في أفقه الذاتي، فيصعب عليه أن يفهم الأشياء من غير منظاره الخاص، ولا يعطي أي اعتبار للآخرين واهتماماتهم، الأمر الذي يؤدي إلى أن يختلط لديه الموضوع بالذات⁽¹⁾.

فالتمرکز هو عبارة عن رؤية الفرد لذاته بوصفه مركز العالم وبقيّة الأشخاص هم تخومه أو أطرافه المنصهرة بتلك الذات والتي لا قيمة لها من دونه، فهي إذاً إلغاء للجميع لتبقى الذات بكافة جواهرانيّتها وأبعادها وممارساتها، بعبارة أخرى التمرکز يعني شعور تلك الذات بالأفضلية أو الكمال والتفوق والسيادة.

والتمرکز بحسب تعريف الباحث عبد الله إبراهيم يعني : نسق ثقافي محمل بمعان ثقافية (دينية وفكرية وعرقية) تكونت تحت شروط تاريخية معينة إلا أن ذلك النسق سرعان ما تعالّى على بعده التاريخي فاختزل أصوله ومقوماته إلى مجموعة من المفاهيم المجردة التي تتجاوز ذلك البعد إلى نوع من اللاهوت غير التاريخي، وهو تكثف مجموعة من الرؤى في مجال شعوري محدد، يؤدي إلى تشكيل كتلة متجانسة من التصورات المتصلة، التي تنتج الذات، ومعطياتها الثقافية، على أنها الأفضل استناداً إلى معنى محدد للهوية قوامه الثبات والديمومة والتطابق، بحيث تكون الذات هي المرجعية الفاعلة في أي فعل سواء باستكشاف أبعاد نفسها أو بمعرفة الآخر، ويشمل ذلك الذات المفكرة

(1) د. عبد الله إبراهيم، نقد التمرکزات الثقافية في العالم المعاصر، مجلة قضايا إسلامية معاصرة، السنة السابعة، العدد 23، 1420 هـ، 2003 م، بغداد، ص 197.

الواعية لذاتها أو تلك الذات غير الواعية التي تقيم تصوراتها على نوع من المخيال للصور النمطية لها ولغيرها⁽¹⁾.

إن الذات الواعية بذاتها وغير الواعية إنما يتركز وعيها على الثقافة السائدة في مجتمعها، ومن ثم فإن عناصر الوعي تنبع بالأصل من مصادر مجتمعية تسهم في تشكيلها، فتري أن أفكارها ودينها وعرقها أفضل وأنقى من بقية الأعراق المجاورة لها؛ وفي الحقيقة إن هناك صعوبات تكتنف البحث عن مصادر ذلك التمرکز حول الذات الذي يظهر في بعض المجتمعات، وإن كان التمرکز العرقي هو أبرز مظهر من مظاهر ذلك التمرکز لأنه يمثل الانعكاس الأشد وضوحاً للعيان لتلك الثقافة المعبأة بتصوراتها حول التمرکز.

وبشكل عام فإن التمرکز العرقي هو أحد أبرز التمرکزات التي ظهرت للوجود منبثقة عن ثقافة تمتلك معرفة ذات تصورات مبنية على ترسيخ تفوقها وعظمتها. ومن ثم فإن ذلك يستدعي عملية مقارنة مع الجماعات الأخرى، وبالنتيجة سيكون عرقها أنقى أو أطهر وأفضل من بقية الأعراق، وبحسب قول عبد الله إبراهيم: لا يقتصر الأمر في التمرکز على إنتاج ذات مطلقة النقاء، وخالية من الشوائب التاريخية إنما - وهذا هو الوجه الآخر لكل تمرکز - لابد أن يتأدى عن ذلك تركيب صورة مشوهة للآخر، وبين الذات الصافية التي تدعي النقاء المطلق والآخر الملتبس بالتشوه الثقافي (الديني والفكري والعرقي) ينتج التمرکز أيديولوجيا إقصائية استبعادية ضد الآخر، وأيديولوجيا طهرانية مقدسة خاصة بالذات، فينقسم الوعي معرفياً على ذاته، لكنه أيديولوجيا تمارس فعلها المزدوج بوصفها كتلة موحدة لها منظور واحد⁽²⁾.

(1) المصدر السابق نفسه، ص196.

(2) د. عبد الله إبراهيم، المصدر السابق نفسه، ص196 197.

وللذاكرة الجمعية لشعب ما أو أمة ما دور فعال في بعث تلك الصور والرموز السلبية عن الآخر، إذ هنا تمارس عملية تحيز وتعصب نحو صور معينة دون سواها، وبما يخدم الموقف التفاعلي لتلك الذات في مواجهتها للآخر.

ومن الواضح أن عملية الشعور بالمركزية والمركزية الإثنية خصوصاً لم يكن وقفاً على حضارة ما أو أمة ما، فالذاكرة الجمعية لكل الشعوب تحتفظ بخزين تاريخي يفصح عن شعورها في لحظة تاريخية أو في عصر ما بتلك المركزية، ولعل هذا الأمر من ضمن أمور عدة دفعت لكليك إلى القول : إن ما أطلق عليه اسم الإثنية المركزية العرقية «ethno centrisme» لم يكن صنيع الأوروبيين المحتلين وحدهم، بل كان صنيع العرب والصينيين والهندوس بل صنيع، أهل الأسكيمو وهنود الأمازون⁽¹⁾.

إن تجليات تلك الذاكرة وأفكارها (التمركزية) تظهر في أثناء عمليات عدة أو تفاعلات اجتماعية أبرزها عمليات الاحتكاك والاتصال بين الجماعات أو الشعوب، لأنها ستكون بمثابة إحدى المرجعيات الثقافية الرئيسة الموجهة لتلك العمليات التي تنتهي بمواجهة عسكرية قد تستمر سنين طويلة، وقد تتحول في كثير من الأحيان إلى احتلال واستعمار لذلك الشعب أو الأمة تارة أو قد تنتهي بمواجهة سلمية أبرز ملامحها التبادلات أو عمليات الاقتباس الثقافي، المتبادل تارة أخرى.

وبعبارة أخرى إن الشعور بالتمركز العرقي بكل تضميناته يكون حاضراً دائماً بين الشعوب، فهو لدى القوية منها يكون العنصر الأبرز في آليات التغيير لشعب أضعف، علماً أنه يكون لدى هذا الأخير بمثابة الخزين الثقافي لذاكرة الأمة لكي يحفظ ما يمكن حفظه من الثوابت الثقافية لدى

(1) جيرار ليكلرك، المصدر السابق نفسه، ص24.

أفراده إزاء فعاليات الشعوب التي يدخلون معها في تواصل واحتكاك (سلمياً أم حريماً)؛ على اعتبار أن الوافد الثقافي أو «النابت الثقافي» سيحاول أو سيسهم في تغيير شيء ما من «الثابت الثقافي» وتحت كل تجليات الفعل الإنساني (اقتصادياً، سياسياً، دينياً، اجتماعياً).

وعلى العموم لقد كان اصطلاح (الاحتكاك أو الاتصال الثقافي) مألوفاً وشائعاً في كثير من الكتابات الإثنولوجية في أوائل القرن العشرين، على أساس الاهتمام بموضوع تأثر الثقافات بعضها ببعض نتيجة الاتصال أياً كانت طبيعته ومدته وأهدافه. وللإشارة لهذا النوع من الدراسات الخاصة بالاتصال أو الاحتكاك الثقافي صاغ الباحث الأمريكي ميلفل هرشكوفيتز (M.Herkovits) (1963-1895) مصطلح التثاقف، الذي يعرفه قائلاً: فالتثاقف يشتمل على الظواهر الناجمة عن الاحتكاك المباشر والمتواصل بين جماعتين من الأفراد تنتميان إلى ثقافتين مختلفتين، مع ما ينشأ عن ذلك من تغيرات في الأنماط الثقافية الأصلية لدى إحدى هاتين الجماعتين أو لديهما معاً⁽¹⁾.

وبحسب المذكرة (التي وضعتها اللجنة المنبثقة عن مجلس الولايات المتحدة في العلوم الاجتماعية سنة 1936م والمكلفة بدراسة عمليات وظواهر التثاقف، والمكونة بالإضافة إلى هرشكوفيتز، رالف لينتون R.Linton وروبرت ريد فيلد «E.Redfield»)، يجب التمييز بين التثاقف والتغير الثقافي وهو التعبير المستعمل لدى علماء الأنثروبولوجيا البريطانيين خاصة، إذ هذا لا يمثل إلا وجهاً من أوجه ذلك. وإضافة إلى أنه يجب عدم الخلط بين التثاقف و«الاستيعاب» باعتبار وجوب فهم هذا على أنه طور التثاقف النهائي، وهو طور نادراً ما يُبلَّغ؛ وأخيراً، لا

(1) جاك لومبار، مدخل إلى الإثنولوجيا، ت: حسن قبيسي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1997م، ص149.

يمكن كذلك الخلط بين الثقافتين و«الانتشار»، إذ حتى لو لازم الانتشار الثقافتين دوماً فمن الممكن أيضاً حدوث انتشار دون تماس «موصول ومباشر» من جهة، كما لا يكون الانتشار من جهة ثانية، أبداً، إلا وجهاً من صيرورة الثقافة، وهي أكثر منه تعقيداً بكثير⁽¹⁾.

وبشكل عام فإن الجماعات أو الشعوب التي تدخل في عملية الثقافة تمتلك منظومة ثقافية مختلفة عن الأخرى، إذ لكل واحدة منها تاريخها وتجاربها ورموزها ومتخيلها، وبعبارة أخرى تمتلك ذاكرة وسلوكاً جماعياً مختلفاً عن الآخر، ومن ثم لابد من وجود ظروف أو عوامل دفعت نحو ذلك الثقافة منها (القسري أو الإلزامي أو الطوعي أو الإرادي) أو مثلما يقول لومبار: أما صيغ الثقافة وأشكاله متعددة ومتبدلة تبعاً لتنوع العلاقات والأبعاد للجماعات التي يتم الاحتكاك بينها، لكنها تتعدد وتنوع أيضاً تبعاً لتفوق إحدى الجماعتين على الجماعة الأخرى تقنياً ومجتمعيًا، وتبعاً لما إذا كان الاحتكاك المذكور إلزامياً أو طوعياً (الاستعمار، وجود السيطرة وعدم وجودها)؛ وتبعاً لدرجة مقاومة الثقافة التي فرض عليها هذا الاحتكاك⁽²⁾.

ولقد بنت المذكرة آنفة الذكر نموذجاً لعمليات التماس الثقافي :

- بحسب أن يكون التماس بين مجموعات بأكملها أو بين شعب بأكمله ومجموعات مخصوصة من شعب آخر (مبشرون، مثلاً، أو مستعمرون أو مهاجرون).
- بحسب أن يكون ودياً أو عدوانياً.
- بحسب أن يكون بين مجموعات متقاربة عدداً أو بين مجموعات متفاوتة الكثرة بوضوح.

(1) ينظر : دنيس كوش، مصدر سابق، ص 93-94.

(2) جاك لومبار، المصدر السابق نفسه، ص 150.

- بحسب أن يكون بين مجموعات متماثلة التعقيد في ثقافتها أو لا.

- بحسب أن يكون نتيجة الاستعمار أو الهجرة⁽¹⁾.

ولا يمكن لهذه العمليات الثقافية أن تتضح معالمها من دون معرفة حركة الذات الغربية نحو الآخر، لاسيما ضمن مراحل أو أطوار تشكلها الاقتصادي تارة أو ضمن ظروفها الاجتماعية عامة وعلى رأسها (الاقتصادية) خاصة. وهذا الأمر بطبيعة الحال يتضمن الحديث بالضرورة عن ظاهرة العولمة التي تمثل الوجه القديم والمعاصر لتلك الذات.

وتأسيساً على ذلك فإن مفهوم العولمة يمثل لنا بمثابة إحدى المقدمات التحليلية الرئيسة التي سنستعين بها، لكونه يعد المرأة العاكسة للحركة الاقتصادية الغربية خصوصاً وكما سيتضح لنا في الطروحات القادمة، وبالتالي ليس هنالك من ضير أن تكون العولمة أداة للتحليل بوصفها مفهوماً، وغاية هذا التحليل عموماً بوصفها الظاهرة المعبرة عن حركة هذه الذات.

إن تعريف العولمة هو أمر شائك وتوجد صعوبات كبرى في الاتفاق على مثل هذا التعريف أو القبول بتعريف واحد ومحدد لهذه الظاهرة التاريخية التي ما زالت في حالة سيولة. كما أن كل المعطيات والتجليات الأولى تشير إلى أنه لا ينبغي الاعتقاد أو الاقتناع بتعريف واحد⁽²⁾.

وعلى الرغم من ذلك، فإن هنالك مجموعة من التعريفات الرئيسة، والتي تمثل بالنسبة لنا قاعدة مفاهيمية - تحليلية سيعتمد عليها في هذا البحث وذلك لعددها رؤية داعمة ومساندة لتساؤلات هذا البحث وغاياته، فالعولمة تعني بشكل عام وحسب رؤية محمد الأطرش: اندماج

(1) دنيس كوش، المصدر السابق نفسه، ص 94-95.

(2) د. عبد الخالق عبد الله، العولمة/ جذورها وفروعها وكيفية التعامل معها، مجلة عالم الفكر، الكويت، (م: 28) - (ع: 2) - أكتوبر/ديسمبر، 1999م، ص 50.

أسواق العالم في حقول التجارة والاستثمارات المباشرة وانتقال الأموال والقوى العاملة والثقافات والتقانة ضمن إطار من رأسمالية حرية الأسواق، وتالياً خضوع العالم لقوى السوق العالمية، مما يؤدي إلى اختراق الحدود القومية وإلى الانحسار الكبير في سيادة الدول، وإن العنصر الأساس في هذه الظاهرة هي الشركات الرأسمالية الضخمة متخطية القوميات⁽¹⁾.

وفي تعريفات مقارنة لذلك نجد بعضهم يعرفها بأنها القوى التي لا يمكن السيطرة عليها، وذلك لأنها تمثل الأسواق الدولية والشركات المتعددة الجنسيات التي ليس لها ولاء لأية دولة قومية، ومنهم من يقول : إنها عبارة عن حرية حركة السلع والخدمات والأيدي العاملة ورأس المال والمعلومات عبر الحدود الوطنية والإقليمية، ويفرق آخرون بين العولمة والنظام الدولي «Interntional system» الذي هو تعاون بين دولة ودولة أو بين عدة دول، بينما العولمة هي تعاون بين جميع الدول والمؤسسات وغيرها - لذا يرى برهان غليون: إنها ديناميكية جديدة تبرز داخل دائرة العلاقات الدولية من خلال تحقيق درجة عالية من الكثافة والسرعة في عملية انتشار المعلومات والمكتسبات التقنية والعملية للحضارة، يتزايد فيها دور العامل الخارجي في تحديد مصير الأطراف الوطنية المكونة لهذه الدائرة المندمجة وبالتالي لهوامشها⁽²⁾.

وضمن سياقات هكذا منطق اقتصادي، حاول الدكتور صادق جلال العظم الإجابة عن ماهية العولمة؟، إذ هو يرى أن العولمة ظاهرة ما زالت قيد التشكل، ما يعني أنها موضع سجال واجتهادات متباينة. وفي رأيه إن ما يميز العولمة على الصعيد الاقتصادي الرأسمالي أنها نقلت العالم من

(1) محمد الأطرش، العرب والعولمة: ما العمل؟، ورقة عمل قدمت إلى ندوة (العرب والعولمة) لمركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط3، 2000م، ص412.

(2) ينظر: نايف علي عبيد، العولمة والعرب، مجلة المستقبل العربي، تصدر عن مركز دراسات الوحدة العربية، ع (221)، 1997م، ص28-29.

دائرة التبادل والتوزيع والسوق والتجارة على نطاق عالمي إلى مرحلة أخرى يجري فيها الإنتاج والاستثمار في مجتمعات الأطراف، أي أنه يرى أن ظاهرة العولمة هي بداية عولمة الإنتاج الرأسمالي بنقله إلى مجتمعات الأطراف، بعد أن كان في السابق محصوراً في مجتمعات المركز، ما يستدعي إعادة نظر جذرية في نظرية التبعية، إنها بحسب تحديده حقبة تحول رأسمالي يجري فيها تصدير الرأسمال الصناعي الإنتاجي، في ظل هيمنة دول المركز وبقيادتها وتحت سيطرتها وسيادة نظام عالمي للتبادل غير متكافئ⁽¹⁾.

لذلك تختلف الرأسمالية المعاصرة (بنظر الاقتصادي المصري فؤاد مرسى) اختلافاً بيناً عما كانت عليه في مطلع القرن العشرين وفي أواسطه. ولقد حدث هذا التطور الخطير حسب رأيه بتأثير الثورة العلمية والتكنولوجية؛ ومن ثم جرى تصحيح مسار الرأسمالية في ظروف احتدام المواجهة مع الاشتراكية وفقدان المستعمرات السابقة؛ وقامت بالتالي ما اصطلح عليه رأسمالية ما بعد الصناعة حيث أصبح العلم نفسه قوة إنتاجية خلاقة، حيث تفتحت مجالات جديدة غير معروفة من قبل للإنتاج وتكرار الإنتاج، وبالتالي توسع السوق وازداد الاستهلاك⁽²⁾.

وفي ظل هذه الثورة العلمية لم يعد الوعاء القطري كافياً لتوسيع الإنتاج، ولم تعد السوق القطرية، مهما يكن اتساعها- كافية لاحتواء حركة السلع والخدمات ورأس المال والعمل. وهكذا يجري الآن بصورة تلقائية، وأحياناً واعية، تدويل مضطرد للحياة الاقتصادية في كل

(1) ينظر: صادق جلال العظم، ما هي العولمة، الطريق، السنة 56، العدد 4 (تموز/آب) 1997م، نقلاً عن: أنتوني غدنز، علم الاجتماع، ت: د. فايز الصياغ، المنظمة العربية للترجمة، ط4، بيروت، 2005م، ص117-119.

(2) ينظر: د. فؤاد مرسى، الرأسمالية تجدد نفسها، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ع (147)، مارس (آذار)، 1990م، ص8.

بلد على حدة. يتخطى الإنتاج الحدود القطرية والقومية ويكتسب رأس المال طابعاً دولياً، وتنمو المشروعات والمصارف المتخطية للقوميات تصبح هي القوة المحركة الجبارة للتركيز الصناعي والمالي في الأسواق التي أصبحت عالمية حقاً⁽¹⁾.

ولقد أطلق الباحثان بارنت R. Barent ومولر R. Muller في كتابهما «Globo Reach, the Power of Multinational Corporations» على المشروع المتخطي للقوميات اسم المشروع الكوني والذي لا يخرج كثيراً عن إطار ممارسات العولمة ولا يختلف عنه إلا في الاصطلاح؛ ويعرفانه بأنه: أول مؤسسة في تاريخ البشرية مكرسة للتخطيط المركزي على نطاق العالم. ونظراً لأن الهدف الأول لهذه المؤسسة هو تنظيم إدماج النشاط الاقتصادي الدولي بطريقة تؤدي إلى تعظيم الربح الإجمالي، فإن هذه المؤسسة الكونية كيان عضوي ينبغي على كل جزء فيه أن يخدم الكل. إن المشروع الكوني يفيد الاقتصاد العالمي من خلال تحكمه المتزايد في ثلاثة موارد رئيسة هي: التكنولوجيا، ورأس المال، والتسويق- وبوساطتها يعمل على تدويل الإنتاج، ويعني هذا التدويل ببساطة أن المزيد والمزيد من السلع والخدمات الواحدة قد أصبح ينتج في العديد والعديد من الأقطار، وإن عملية الإنتاج قد صارت تتجاهل بصورة متزايدة ما يعرف بالحدود القومية، وبذلك يمكن أن يقوم نظام موحد للإنتاج على نطاق العالم⁽²⁾.

وإذا كانت العولمة حسب تحليلات العظم هي عملية انتقال في آليات الرأسمالية من نطاق المحلية في الإنتاج والعالمية في التوزيع والتبادل إلى العالمية في الإنتاج وإعادة الإنتاج أي (رسملة العالم) أي أنه عصر رأسمالية ما بعد الصناعة حسب أطروحات فؤاد مرسي أو المشروع

(1) المصدر السابق نفسه، ص 8-9.

(2) ينظر: المصدر السابق نفسه، ص 151-170.

الكوني حسب أطروحات بارنت ومولر، فإن هذا الانتقال حسب اعتقادنا لم يكن ليتم من معين الرأسمالية وحدها كنظام اقتصادي، بل إن المسألة على صلة تامة بالقواعد الفكرية أو بالقواعد النظرية للنظام الاقتصادي الغربي عموماً، بعبارة أخرى إن الوقوف على بدايات تشكل الرأسمالية في الغرب ستكشف لنا المساعي أو المقاصد الأولى لرسملة العالم دون الاكتفاء بالنطاق المحلي فحسب، إذ إن ذهنية أو بالأحرى (العقلية الأوروبية) خصوصاً وبحسب انبثاقها التاريخي ومؤثراتها البيئية كانت على استعداد دائم للعبور نحو الآخر وبكل الوسائل.

ولعل ما يؤكد الطروحات آنفة الذكر، مع متبينات البحث حول أن العولمة ظاهرة تاريخية رافقت مراحل تشكل الذات الغربية لاسيما الجانب الاقتصادي منها، هو النموذج الذي صاغه رولاند روبرتسون في دراسته تخطيط الوضع الكوني : العولمة باعتبارها المفهوم الرئيس والذي حاول فيه أن يرصد المراحل المتتالية لتطور العولمة وامتدادها عبر المكان والزمان⁽¹⁾.

ونقطة البداية عند روبرتسون هي ظهور «الدولة القومية الموحدة»، على أساس أن هذه النشأة تسجل نقطة تاريخية فاصلة في تاريخ المجتمعات المعاصرة، ذلك أن ظهور المجتمع القومي منذ حوالي منتصف القرن الثامن عشر يمثل بنية تاريخية فريدة، وأن الدولة القومية المتجانسة (والتجانس هنا بمعنى التجانس الثقافي) والمواطنيين الذين يخضعون لإدارتها، تمثل تشكيلاً لنمط محدد من الحياة؛ وهناك مكونان آخران للعولمة وهما - بالإضافة إلى المجتمعات القومية - مفاهيم

(1) ينظر دراسة رولاند روبرتسون : (تخطيط الوضع الكوني : العولمة باعتبارها المفهوم الرئيس) في :

Global Culture : Nationalism , Globalization and Modernity : A Theory Culture and Society special Issue , edited by Mike Featherstone London ; Neubury park : Sage publications , 1990 , pp. 15-30 .

نقلًا عن: د. سيد ياسين، في مفهوم العولمة، ورقة عمل قدمت إلى ندوة (العرب والعولمة)، مصدر سابق، ص30.

«الأفراد» و«الإنسانية» وينقسم نموذجهم إلى خمس مراحل⁽¹⁾ والتي نوجزها على النحو الآتي:

- (1) المرحلة الجنينية: والتي بدأت في بدايات القرن الخامس عشر متزامنة مع التوسع الكنسي، وبرز مجموعة من النظريات التي تتحدث عن وحدة العالم والبشرية.
- (2) مرحلة النشوء: والتي بدأت في منتصف القرن الثامن عشر؛ وكانت أيضاً مرحلة أوروبية، وقد شهدت هذه المرحلة انتعاشاً واضحاً وغير مسبوق لمفهوم العلاقات الدولية مع تركيز خاص على الأبعاد القانونية، التي تحكم هذه العلاقات، بما في ذلك الارتباط بالمجتمعات غير الأوروبية.
- (3) مرحلة الانطلاق : والتي امتدت من القرن التاسع عشر وحتى العقد الثاني من القرن العشرين، وقد امتازت هذه المرحلة ببرز اتجاهات كونية واضحة تركز على المجتمع العالمي الواحد، وتستمد حيويتها من المنافسة الدولية، وسرعة التحولات في وسائل الاتصالات والمواصلات واندلاع الحرب العالمية الأولى.
- (4) الصراع من أجل الهيمنة : استمرت هذه المرحلة من العشرينيات حتى منتصف الستينيات. وبدأت الخلافات والحروب الفكرية حول المصطلحات الناشئة الخاصة بعملية العولمة والتي بدأت في مرحلة الانطلاق. ونشأت صراعات كونية حول صور الحياة وأشكالها المختلفة.
- (5) مرحلة عدم اليقين : والتي امتدت من بداية السبعينيات إلى بداية التسعينيات، لقد شهدت هذه المرحلة تزايداً في إدراك الأفراد بعالمية العالم، وذلك إثر انتهاء الحرب الباردة، وبرز المؤسسات

(1) المصدر السابق نفسه، ص 30 32.

الحكومية وغير الحكومية لإدارة القضايا العالمية المعاصرة، مع زيادة واضحة في القلق العالمي على مصير البشرية على الكرة الأرضية، وهو القلق الذي بدأ يروج عبر وسائل الإعلام التي استعانت بالأقمار الفضائية لتتخطى الدول وتصل إلى كل زاوية من زوايا الكرة الأرضية.

وفي هذا الإطار نجد أنه يعرف العولمة بأنها: اتجاه تاريخي نحو انكماش العالم وزيادة وعي الأفراد والمجتمعات بهذا الانكماش، ثم يستدرك روبرتسون قائلاً: والعولمة لا تعني مجرد الانكماش الموضوعي للعالم، وإنما الأهم من الانكماش الذي حدث على صعيدي الزمان والمكان، هو وعي العالم لهذا الانكماش⁽¹⁾. وإن أهم ما يتضمن مسألة الانكماش تلك الأمور الآتية: تقارب المسافات والثقافات؛ ترابط المجتمعات والدول حيث لم يعد بالإمكان العزل والانعزال، سرعة التحولات والمستجدات وعدم القدرة على مجاراتها⁽²⁾.

يتمثل إحساس روبرتسون بالأحدية العالمية، جوهرياً، في سياق يحدد العلاقات الاجتماعية على نحو متزايد، وفي الوقت نفسه في إطار مرجعي تقوم القوى الاجتماعية في داخله وعلى نحو متزايد بتقرير وجودها وهوياتها وأفعالها، بالنسبة إلى روبرتسون إذاً، لا تدل الأحدية العالمية على اتساق بسيط - أي على شيء يشبه ثمة «ثقافة عالمية»، فهي بالأحرى حالة اجتماعية وفينومينولوجية معقدة - أي «الحالة الإنسانية العالمية» التي تستحضر فيها الرتب المختلفة للحياة الإنسانية للتفاعل مع بعضها البعض⁽³⁾.

وهو يحدد أربعاً من هذه الرتب: الأفراد من البشر، والمجتمعات الوطنية، والنظام العالمي للمجتمعات، والجماعية Collectivity المهيمنة

(1) د. عبد الخالق عبد الله، مصدر سابق ص52.

(2) المصدر السابق نفسه.

(3) ينظر: د. جون توملينسون، العولمة والثقافة / تجربتنا الاجتماعية عبر الزمان والمكان، ت: د. إيهاب عبد الرحيم محمد، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ع 354، أغسطس، 2008م، ص22.

«للجنس البشري». إذ إن العولمة، بالنسبة إليه، هي التفاعل المتزايد بين هذه الطبقات المكونة للحياة الإنسانية، ولذلك فإن العالم كمكان واحد يشير ضمناً إلى تحول هذه الأنماط من الحياة في أثناء اتخاذها على نحو متزايد مواقف متعارضة، واضطرابها لاخذ بعضها البعض في الاعتبار. وليس هذا أحادية المجانسة ولا هو إحساس ساذج بوحدة المجتمع (Comm) العالمي الملحة⁽¹⁾.

إننا عموماً ننتقل دون أن ندرك وعلى حد تعبير جيرار لكليرك من عالم سيطرت فيه العزلة الثقافية إلى عالم آخر يسوده التبادل الثقافي، من عالم يتميز بالاستقلالية الثقافية لجماعات معزولة تقليدية إلى عالم آخر هو عالم يسوده تعميم العلاقات التبادلية والتواصلية⁽²⁾. وبعبارة أخرى وعلى حد قوله كذلك : يمتاز عصرنا بامتياز تاريخي لاشك فيه، إذ يقوم على إمكانية الانتقال من عالم حضارات معزولة تأسست بشكل ما في أمكنة وأزمنة مختلفة، إلى عالم واحد يمتاز بمكان واحد (السوق العالمي) وزمن واحد (تزامن كل الأحداث) وولادة تواصل وجماعة عالميين⁽³⁾.

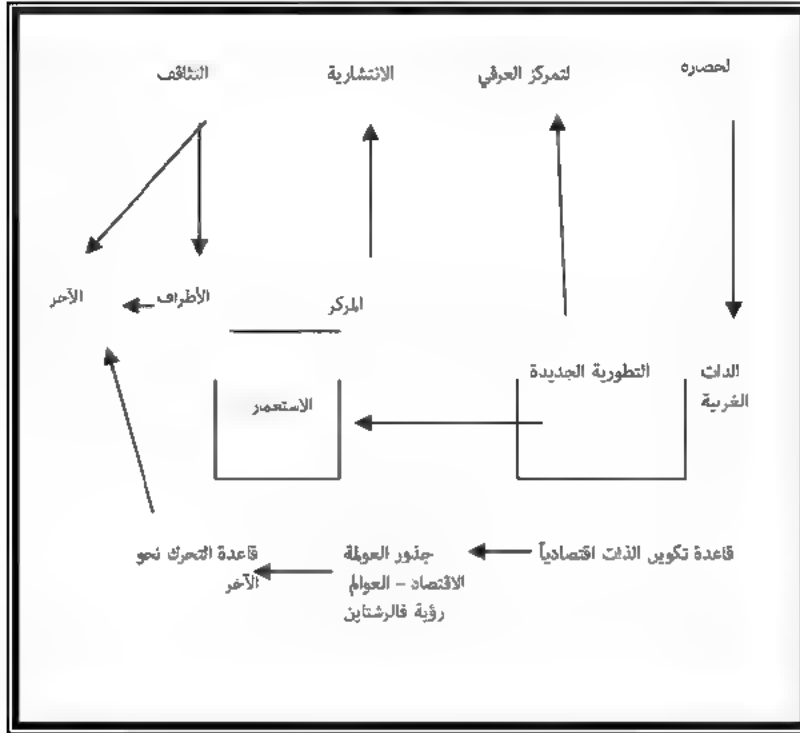
إذا كان الانكماش الذي حققته العولمة قد تحقق بوتيرة متصاعدة في الزمن المعاصر حسب تحليلات لكليرك، فإنه كان قائماً منذ زمن بعيد وحسب أطروحات روبرتسون في نموذج التاريخي ومراحل الخمس التي سبق ذكرها، ذلك الانكماش الذي سعت نحوه الذات الغربية منذ القرن الخامس عشر الميلادي والذي دشنت فيه الخطوات الأولى نحو بنائها الاجتماعي العام لاسيما الاقتصادي منه، وما تبعه بعد ذلك من تمدد نحو كيانات الآخر الجغرافية (الاقتصادية) والسياسية (الثقافية) أي (السعي نحو التماثل).

(1) د. جون توملينسون، مصدر سابق، ص22.

(2) جيرار ليكلرك، مصدر سابق، ص23.

(3) المصدر السابق نفسه، ص26.

ولأجل التعمق أكثر في تحليل ذلك كله سنعتمد على بعض الأطر النظرية (الأنثروبولوجية والسوسيولوجية) الرئيسة في التفسير، إضافة إلى المفاهيم التحليلية الأنف ذكرها، تلك الأطر والمفاهيم التي تتضح في الترسمة أو المخطط النظري الآتي:



ترسيمة توضح الإطار النظري والمفاهيمي للتحليل.

إن الذات الغربية بكل ما ورثته عن بقية الحضارات الإنسانية (روما- بيزنطة - الإسلام) وحتى البربرية، استطاعت وضع ملامح رئيسة أولية لحضارة جديدة متفردة في نظمها وقيمها ومعتقداتها الاجتماعية وأنماطها السلوكية، وحتى في مهاراتها الفنية التي استطاعت بموجبها السيطرة على بيئتها وتكييف نفسها معها.

وفي إطار بحثنا عن كيفية تكون أو تشكل الذات الغربية وحضارتها اقتصادياً، وجدنا أن في بعض الاتجاهات النظرية المنبثقة عن المدرسة التطورية والمنطوية تحت عنوان التطورية الجديدة⁽¹⁾. أنها تشمل رؤى وتفسيرات نظرية يمكن الاستفادة منها في مجال هذا البحث، لاسيما وأن التطورية عموماً تنطلق من تصورات نظرية مهمة في كثير من جوانبها على الرغم من كثرة الانتقادات الموجهة إليها، لكنها ما زالت في بعض جوانبها لاسيما المعدلة منها (التطورية الجديدة) تمثل منطلقاً مهماً لاستيعاب نشوء الحضارات وتكونها. فلقد رأت التطورية مثلاً وعلى حد تعبير لكليك : أن حافز الابتكار والتغيير الثقافي هو أكبر في القوى الداخلية لكل مجتمع منه في الاحتكاكات الثقافية، مع القوى الخارجية المتأتية عبر التسربات البطيئة نوعاً ما، أو المفاجئة عن عناصر غريبة⁽²⁾.

والفكرة الأخرى المهمة في التطورية والتي يبتنى عليها بعض جوانب هذا البحث، هي مساهمتها في تفسير حركة الذات الغربية نحو الآخر (العوامل) وسعي تلك الذات لمماثلة ومطابقة هذه العوامل معها، لاسيما عبر (العولمة) بشتى أدواتها وتداعياتها الداعمة لاستدماج (Inacculturation) العالم (الأطراف) مع الغرب (المركز)، وفي هذا المجال يقول لكليك : تصر التطورية، أكثر فأكثر، على هوية المجتمعات أو على الآليات الاجتماعية - التاريخية (إنها تفتكر بعبارات «المراحل» الكونية) أكثر مما تصر على الاختلافات ما بين الحضارات، فالتطورية تلتزم حتمية تقنية واقتصادية، وتفترض مسبقاً أن توحد العالم عبر السوق والتقنية سيؤدي إلى تجانس ثقافي وإلى اختفاء الحضارات الكبرى تحت كنف القوى الكونية⁽³⁾.

1- ينظر تفاصيل ذلك : آجر فوج، الانتخاب الثقافي، ت : شوقي جلال، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2007م، ص34-39.

(2) جيرار لكليك، المصدر السابق نفسه، ص35.

(3) المصدر نفسه، ص34 35.

واتجاهات (التطورية الجديدة) هي الآتية :

أولاً : اتجاه ليزلي هوايت (1900-1975م) :

لقد أسهم هوايت بإعادة الحياة إلى مفردة (تطور) خصوصاً و(التطورية) عموماً لاسيما بعد انهيارها في بدايات القرن العشرين، فلقد حاول هو وجولييان ستيوارد (1902م-1972م) وجوردن تشايلد (1892م-1953م) في الأربعينيات والخمسينيات من القرن نفسه تقديم منظور محدد لموضوع دراسة تطور المجتمعات، وتغير الثقافة الإنسانية ككل⁽¹⁾.

وتستند نظرية هوايت التطورية على النقاط الرئيسة الثلاث:

(1) يميز هوايت بين مجال تاريخ الثقافة، ومجال التطور الثقافي، فبينما التاريخ عملية زمانية تتناول الخاص والمتفرد. نجد التطور عملية شكلية زمانية «temporal – Famal» تبدو فيها الظواهر الثقافية كتتابع زمني من الأشكال (البناء والوظيفة).

(2) أسس هوايت «علما للثقافة» «Culturology»، يرى أن الثقافة – بوصفها كياناً فوق عضوي – لا يجب أن تفسر بالرجوع إلى الظواهر السيكولوجية وإنما من خلال الثقافة نفسها، وبناء عليه فإن تطور الثقافة عملية مستقلة تماماً تعلو على كل الارتباطات التاريخية العرضية.

(3) يقاس التطور الشامل للثقافة بالنظر إلى استخدام الطاقة في التنمية التكنولوجية، أي زيادة معدل استهلاك الفرد للطاقة الطبيعية⁽²⁾.

(1) ينظر : د. حسين فهميم، قصة الأنثروبولوجيا، مصدر سابق، ص203، وايكة هولتكرانس، قاموس مصطلحات الإثنولوجيا وال فولكلور، ت: د. محمد الجوهري، ود. حسن الشامي، دار المعارف بمصر، ط1، 1972م، ص113-114.

(2) ايكة هولتكرانس، مصدر سابق، ص114. وللاستزادة ينظر:

Raymond scupin, Christopher. Decorse, Anthropology/ A GLOBAL PERSPECTIVE, prentice – Hall. Inc. New Jersey, Fourth Edition, 2001, p. 300.

وجوهر طروحاته التطورية الجديدة موجود في كتابه «علم الثقافة» الذي نشره عام 1949م، حيث نجد فيه استناده إلى استراتيجية المادية الثقافية التي حصرها في مفهوم الطاقة. وهو يرى أن النظم الاجتماعية الثقافية تتألف من ثلاثة أجزاء: الجزء التقني الاقتصادي، والجزء الاجتماعي، والجزء الأيديولوجي، وتقوم حسب رأيه بين هذه الأجزاء علاقات سببية، فالثقافة كما يتصورها تمثل آلية هدفها الرئيس توظيف الطاقة في خدمة الإنسان إضافة إلى توجيهه وضبط سلوكه بخصوص المعيشة والأمن والدفاع. من كل هذا فإن النظم الاجتماعية في إطار فكر وايت تحددها النظم التكنولوجية. أما الفلسفات والفنون فهي تعبر عن الخبرات كما تحددها التكنولوجيا وفي إطار تفاعلها مع النظم الاجتماعية⁽¹⁾.

ويعني آخر فإن المضمون التكنولوجي في ثقافة ما يحدد الكيان الاجتماعي، والاتجاهات الأيديولوجية لها، فمثلاً نجد أنه في المجتمعات التي يستخدم أفرادها قدرًا محددًا من الطاقة تنشأ عندهم نظم دينية وسياسية واقتصادية أقل وأكثر بساطة من تلك التي تتكون في مجتمعات تكثر وتتنوع فيها استخدامات الطاقة والامكانيات التكنولوجية⁽²⁾. وعلى العموم رأي هوايت أن التكامل والدمج بين الجزء التقني الاقتصادي، والجزء الاجتماعي والجزء الأيديولوجي يعني سيطرة سياسية قوية ووحدات سياسية أكبر يتزايد حجمها دائماً وأبداً. ولم يكن هذا التكامل هدفاً في ذاته بل وسيلة نحو الهدف الحقيقي للتطور: ألا وهو استخدام الطاقة بأكبر قدر ممكن وعلى نحو أكثر كفاءة. ودافع هوايت بلغة الديناميكا الحرارية عن وجهة النظر القائلة بأن استغلال الطاقة هو المقياس الكلي الشامل للتطور الثقافي وعبر عن هذا بالصيغة التالية⁽³⁾:

(1) د. قيس النوري، مدارس الأنثروبولوجيا، مطابع دار الحكمة للطباعة والنشر، بغداد، 1991م، ص 387.

(2) د. حسين فهمي، مصدر سابق، ص 203-204.

(3) أجنر فوج، مصدر سابق، ص 36. وينظر:

Raymond scupin, Christopher. Decorse, Ibid. pp. 300 301.

ويمكن في ضوء طروحات وايت تحليل وتفسير مرحلة تكوين الذات الغربية لاسيما من ناحيتها أو جانبها الاقتصادي، وكيف أنها حاولت جاهدة توظيف الطاقة المتنوعة المتاحة لديها آنذاك عبر تحدي الطبيعة، والتي أسهمت في إحداث عملية التنمية التكنولوجية؛ وبالتالي إن التعرف على مرحلة توظيف الطاقة سيبين لنا الملامح الأولية للتطور الثقافي الشامل والذي يبتنى بالأصل وحسب رأي وايت على العلاقات السببية بين الأجزاء الثلاثة المكونة للنظم الاجتماعية الثقافية، ألا وهي:

أولاً : الجزء التقني الاجتماعي، المعبر عنه هنا بما يمتلكه الذات الغربية في مرحلة تشكيلها وتكونها من ثقافة تقانية تتحدى بموجبها الطبيعة عبر النظريات أو القوانين، وما يتصل بذلك من تجريب واختبار (أمبريقي) ونتائج واقعية / عملية في الوقت ذاته.

ثانياً : الجزء الاجتماعي، والذي يختص بالنظام الاجتماعي العام من مؤسسات (دولة) وأنشطة اجتماعية متنوعة (الامة)، والتي يعبر عنها لدى الذات بأنظمتها السياسية وأنشطة الأمم الغربية المتنوعة فيما بينها ومع أنظمتها السياسية القائمة.

ثالثاً : الجزء الأيديولوجي: والذي يعبر عن موجهات ومحددات الأنشطة الاقتصادية/التقانية كافة؛ ولعل ما يعبر عنه في تلك المراحل الاقتصادية (الارتكازية) في الأشكال الأيديولوجية (الفكرية) المتولدة في عصر الإقطاع «أيديولوجيا الحروب الصليبية»، وأيديولوجيا عصر الرأسمالية (الليبرالية). وسيحاول الباحث الحديث عن هذه الأجزاء الثلاثة وأهمية مسألة الطاقة كمقياس للتطور ضمن متون المباحث القادمة.

ثانياً : اتجاه أجنر فوج Agner Fog:

وفوج هو أستاذ الأنثروبولوجيا المعاصر في جامعة كوبنهاجن، حيث وضع نظرية جديدة ضمن سياقات تحديث المدرسة التطورية سُمي هذه النظرية الجديدة (الانتخاب الثقافي) التي يقول عنها فوج : هي نظرية عن ظواهر يمكن أن تنتشر داخل مجتمع ما، مثل الشعيرة الدينية أو أسلوب في الفن أو طريقة في الصيد. وتشتمل النظرية على ثلاث عمليات أساسية:

أولاً : أن تنشأ الظاهرة، وهذا ما يسمى التجديد أو الإبداع.

ثانياً : يمكن أن تنتشر الظاهرة من إنسان إلى آخر أو من جماعة من البشر إلى جماعة أخرى، وهذا ما يسمى التكاثر أو النقل أو المحاكاة أو الانتشار.

ثالثاً : العملية الأساس الأخرى في النظرية هي الانتخاب. ونعني بالانتخاب أي آلية أو عامل يؤثر في مدى انتشار الظاهرة من حيث الكثرة أو القلة وأوضح أنواع الاختيار هو الاختيار الواعي من جانب البشر⁽¹⁾، والممثل لديه بنوعين K-R.

الانتخاب الثقافي R- و K (رؤية فوج لنماذج الانتخاب) :

وهما إشارة لكلمتي ريجال Regal و Kalypso كاليبتي، ومصدر كلمة ريجال هو كلمة rex، والتي تعني الملك. ولقد اختار فوج هذه الكلمة لأن بالإمكان اعتبار الدكتاتورية نموذجاً للثقافة الريجالية. أما كلمة كاليبتي فلقد صكها على أساس كلمة كاليبسو Kalypso وهي اسم إحدى الحوريات في الأساطير الإغريقية والتي أسرت أوديسيوس odysseus فوق جزيرة مهجورة. ولقد اختار هذه الكلمة بناء على اعتقاده : بأن أصدق أنماط للانتخاب الثقافي نجدها فوق الجزر المعزولة.

(1) أجنر فوج، الانتخاب الثقافي، مصدر سابق، ص78.

ويرى فوج أنه يمكن تحديد معالم مفهوم ريجالي على أساس التعريفات التالية :

- (1) الانتخاب الريجالي هو عملية انتخاب ثقافي تهيمن عليه نزاعات فيما بين الجماعات أو أخطار جمعية أخرى.
 - (2) الثقافة الريجالية Regal Culture هي حصاد مثل هذا الانتخاب .
 - (3) ثقافة تنفق نسبة عالية من مواردها على التوسع أو الدفاع .
 - (4) ثقافة تفيد حرية الفرد من أبنائها وتفرض متطلبات كبيرة على موارد الفرد لغرض تقوية الجماعة.
 - (5) المنتج الثقافي الريجالي هو ظاهرة ثقافية تمثل جزءاً من استراتيجية ثقافة ريجالية أو أنها بمعنى آخر منتج نمطي لثقافة ريجالية⁽¹⁾.
- وطبيعي أن يتحدد المصطلح كالليتي Kalypitic بأنه النقيض، بمعنى أنه ثقافة لا تحكمها النزاعات الخارجية والتي تنفق على إشباع الفرد موارد أكثر مما تنفق على وسائل تقوية الجماعة. ومن ثم تولي حرية الفرد أهمية، ولعل من الأفضل استخدام الكلمتين على أساس من التدرج النسبي وليس باعتبار أنهما يمثلان نمطين مطلقين. ويبدو مفهوماً أكثر أن تقول إن الثقافة أكثر ريجالية من الثقافة ج، بدلا من الاكتفاء بقولنا إن الثقافة س ثقافة ريجالية⁽²⁾.
- حدث الانتخاب الثقافي R- عندما تتوفر لجماعة ما فرص موضوعية للتوسع سياسياً وثقافياً بمعنى هزيمة جماعات أخرى وفرض أيديولوجية أو ثقافة الجماعة المنتصرة عليهم، ولكنها في الوقت نفسه تواجه مخاطرة كبرى تتمثل في سقوطها ضحية توسع جماعات

(1) المصدر السابق نفسه، ص 119 .

(2) المصدر السابق نفسه، ص 120.

أخرى. أو لنقل بعبارة أخرى إن الجماعة خاضعة لهيمنة نزاعات وحروب خارجية. وأعني بالجماعة مجموعة متكاملة ومترابطة من الناس يربط بينهم شعور بأن ثمة هوية جمعية مشتركة بينهم، كأن تكون قبيلة أو دولة - أمة أو طائفة دينية. وتتحدد عضوية الجماعة عادة على أساس انتماء ديني أو سياسي أو عرقي، وغالباً ما يرمز إليها بعلامات مميزة ذات طابع معين⁽¹⁾.

ويفضي الانتخاب الثقافي R- إلى تخصيص نسبة عالية من موارد الجماعة لصد الحروب أو النزاعات الخارجية أو غيرها من أخطار جمعية. وطبيعي أن الجماعة التي تمتلك القوة العسكرية الأقوى والاستراتيجية الأكفأ سوف تنتصر في عملية الانتخاب الثقافي للجماعة. أو بعبارة أخرى إن الانتخاب الثقافي R- يفضي إلى التسلح، وإن هذا التسلح ليس من النوع التقني فقط، بل إن الجانب الأكبر منه ذو طبيعة أيديولوجية وسياسية، إذ تتعزز روح قوية للمجتمع المحلي في ارتباط بأيديولوجيا تفيد بأن الفرد موجود لصالح الجماعة، ومن ثم على الفرد أن يضحي بنفسه من أجل المجتمع. وتسود هنا نظرة تقول إن النظام والالتزام والتماثل فضائل، وإن الشهادة هي الشرف الأسمى، ويسود الاعتقاد بأن الحكومة المركزية القوية علامة على الثروة، وأن هذا النوع من الأيديولوجيات وما يناظره من تنظيم سياسي يجعل القوى الأشد منعة وتسليحاً في نزاع سياسي وأيديولوجي مع جماعات الجوار، ومن ثم تكون هي الأكثر ملائمة ثقافياً في وضع تهيمن عليه عملية الانتخاب الثقافي R-⁽²⁾.

ونقيض الانتخاب الثقافي R- هو الانتخاب الثقافي K- الذي يحدث عندما تنتفي فرص التوسع الثقافي لجماعة ما ولا يتهدها عدوان من

(1) المصدر السابق نفسه، ص 117.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 117 118.

جانب جماعات أخرى. وتتمثل هذه الحالة تماماً عندما تكون جماعة ما معزولة جغرافياً، كأن تكون مثلاً داخل جزيرة منعزلة أو عندما تكون الفوارق الثقافية بين جماعة وجيرانها ضئيلة بالمقارنة بالفوارق الداخلية للجماعة نفسها. إذ تكون النزاعات الخارجية هنا ضئيلة أو لاوجود لها، بينما النزاعات الوحيدة ذات الدلالة والأهمية في عمليات الانتخاب هي النزاعات الدائرة داخل الجماعة بين القادة والرعايا أو بين الثقافات الفرعية أو بين الأفراد.

ومن ثم، فإنه في حالة عدم وجود نزاعات خارجية يكون تشكيل قوة عسكرية ذات بأس تبيدياً للموارد. ولن يقبل السكان نظام حكم استبدادي يفرض الوحدة والنظام، وإنما سوف يتمردون ضد الزعماء الأقوياء، وسوف تكون الحروب من أجل حرية كل فرد هي النزاعات السائدة، وهذا من شأنه أن يفضي إلى أيديولوجيا تقضي بأن المجتمع قائم لخدمة مصالح الفرد وليس العكس. وسوف يحظى الفرد بقدر أكبر من حرية الاختيار، كما سيتوفر قدر أكبر من التسامح إزاء الاختلافات الفردية. وهنا يعتبر الزعماء حياة ورفاهة أي فرد أمراً مهماً⁽¹⁾.

وتأسيساً على تلك النظرية يمكن البحث عن طبيعة الانتخاب الثقافي الذي مورس من قبل الذات الغربية في مراحل التشكل والتكون الخاصة بها، لاسيما من خلال نموذجي الانتخاب الثقافي K-R اللذين يعدان بنظر أجنر فوج القوة المحركة الدافعة للتطور في هذا الاتجاه أو ذاك. هذان النموذجان اللذان يستندان على آليات مختلفة تدفع نحو هذا الانتخاب أو ذاك وأهمهما بنظره عاملا الحرب والسلام.

ولعلنا في متون الفصول القادمة سنستطيع الوقوف بشكل أدق وأعمق على آليات الانتخاب الثقافي ونماذجها، الذي أحكم قبضته على تطور وتقدم الذات الغربية لاسيما على صعيد الإنجاز الاقتصادي.

(1) المصدر السابق نفسه، ص178.

واستمراراً في توضيح الاطار النظري والمفاهيمي آنف الذكر، وقبل الحديث عن الجانب الثاني الخاص بقاعدة تحرك الذات الغربية نحو الآخر (أي قاعدة التفسير النظري الأنثروبولوجي)، ينبغي التحدث عن فالرشتاين (وهو مؤرخ وعالم اجتماع أمريكي)، الذي يعد أحد الذين حاولوا وضع جدول لتشكيل العالمية الاقتصادية والسياسية.

لقد حاول بشكل طبيعي التفكير بمفهوم الحضارة (مستنداً إلى بروديل غالب الأحيان) ليضع بعد ذلك دراسة وصفية للنماذج البشرية أراد لها أن تكون أكثر دقة مما وضعه الذين سبقوه. لقد ميز بشكل خاص بين «الإمبراطوريات - العوالم» و«الاقتصاديات - العوالم» والتي شكل دمجها المعقد في الحقبة الحاضرة ما نطلق عليه اسم «نظام العالم» الحالي⁽¹⁾.

إن المفهوم الأكثر عمومية الذي ينطلق منه فالرشتاين هو مفهوم النظام «System». إذ يرى فالرشتاين أن المجتمعات كلها، باستثناء أكثرها بساطة، توجد في إطار بناءات اقتصادية وسياسية وثقافية أكبر، وأنه من الضروري دراسة أبنية هذه «النظم العالمية» الأكبر.

إذ إن أي نظام عالمي هو نظام مختلف ثقافياً عن تقسيم العمل الأحادي، بل هو عبارة عن وحدات اجتماعية مميزة ثقافياً، لكنها ذات

* ولد إيمانويل فالرشتاين «Immanuel Wallerstein» في نيويورك عام 1930م لأسرة تتمتع بوعي وإدراك سياسي، والتحق بالخدمة العسكرية خلال فترة دراسته في جامعة كولومبيا، وبعد عودته إلى الدراسة قرر استكمال دراسته للماجستير حول نقشي المكارثية في الحياة الفكرية الأمريكية، وحصل على درجة الدكتوراه عام 1959م في دراسته حول السياسة في غانا وساحل العاج، ولقد أسس مركز فرناند بروديل لدراسة الاقتصادات والنظم التاريخية والحضارة. بتأثير من أعمال فرناند بروديل الوفيرة والممتدة تاريخياً حول الحضارات المقارنة، وانطلاقاً من هذه القاعدة قدم دراسات «The Modern World System» التي أرسيت شهرته العلمية، وأحدثت تحولاً في دراسة التطور الاقتصادي. تقاعد من التدريس الجامعي عام 1999م، لكنه يواصل الكتابة حول جوانب النظام العالمي المعاصر، ينظر كتاب: خمسون عالماً اجتماعياً أساسياً/المنظرون المعاصرون، تحرير: جون سكوت، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط1، 2009م، ص 412-413.

(1) جيرار ليكنرك، المصدر السابق نفسه، ص 69 و70.

اعتماد مترابط اقتصادياً؛ ويمكن أن يتضمن النظام العالمي العديد من التجمعات المميزة إثنياً⁽¹⁾.

فالنظام الاجتماعي هو كل يكتفي فيه الوجود البشري وإلى حد بعيد بذاته. إن دينامية تطوره هي إلى حد كبير من ضمن هذا النظام. أنه مغلق، مستقل ومكتف بذاته. مثلاً على هذه المجتمعات التي تعمل ضمن تيار مغلق، يشير فالرشتاين إلى اقتصادات المؤونة (المجتمعات البدائية، المجتمعات الصغيرة التقليدية). هذا من جهة و«الأنظمة - العوالم» من جهة أخرى. تنقسم هذه بدورها إلى نمطين اجتماعيين كبيرين : «الإمبراطوريات - العوالم» و«الاقتصادات - العوالم»⁽²⁾.

تستند وحدة «الإمبراطوريات - العوالم» إلى وجود نظام سياسي قوي، إنها مجتمعات سياسية ممركة. إنها الشكل الأكثر قدماً والأكثر شمولية للوحدات الاجتماعية الموحدة والممركة : «إن الإمبراطوريات، وخلافاً للاقتصاديات - العوالم» هي وحدات سياسية. ومنذ خمسة آلاف سنة كانت موجودة على المسرح العالمي؛ وكان يوجد منها الكثير في أجزاء مختلفة من العالم⁽³⁾.

أما «الاقتصاديات - العوالم» فهي أنظمة سياسية أكثر جدة وأكثر ندرة؛ وهي تمتاز أساساً بغياب النظام السياسي الواحد وهي تقوم على غلبة الاقتصادي بالمقارنة مع السياسي : إذ إن : لأبعاد الاقتصاد - العالم - ارتباطاً وثيقاً بالحالة التقنية وبشكل خاص بإمكانيات النقل والتواصل عبر حدوده. وفي داخل اقتصاد - عالم ما، نجد دائماً ثمة تمايزاً بين المركز والطرف (وهذا ينطبق أيضاً على الإمبراطوريات)؛ إننا نميز فيه بين الدول المركزية والمناطق على الأطراف⁽⁴⁾.

(1) جون سكوت، المصدر السابق نفسه، ص414.

(2) المصدر السابق نفسه، ص70.

(3) المصدر نفسه.

(4) المصدر نفسه.

إن النمط العام للنظام الاجتماعي الخاص بالذات الغربية هو «الاقتصاد - العوالم»، وعلى حد قول فالرشتاين نفسه إن أوروبا لم تكن إمبراطورية بقدر ما كانت (اقتصاد - عالم)، فمع نهاية القرن الخامس عشر وبداية السادس عشر ظهر الاقتصاد - العالم الأوروبي لقد كان شيئاً مختلفاً، شيئاً جديداً بشكل جذري، نمطاً من نظام اجتماعي لم يسبق للعالم أن شهد مثله، وهو ما أصبح السمة المميزة للنظام العالمي الحديث لقد كان كياناً اقتصادياً لا سياسياً كسائر الإمبراطوريات، إن الرابط الأساس كان من نمط اقتصادي حتى لو جرى تعزيز ذلك أحياناً بروابط ثقافية وأحياناً باتفاقيات سياسية⁽¹⁾.

فالاقتصاد كان الرابطة الأساسية بين دول أوروبا ذاتها من جهة، وبين أوروبا والعوالم الأخرى من جهة أخرى، أي في حركة الذات الغربية نحو الآخر أيّاً كان وعبر شتى الوسائل (السلمية / الثقافية) أو (الحربية / الاستعمارية) في إجراء هذا الترابط بين الغرب والآخر.

ومن معين ذلك النظام الاجتماعي (الاقتصاد - العوالم) الذي يهيمن على ليس على تشكل الذات الغربية وتبلورها العام لاسيما الاقتصادي منه على وجه الخصوص، بل يهيمن على حركة الذات نحو العوالم (الآخر)، من هذا المعين يمكن أن نفسير حركة الذات الغربية نحو الآخر عبر الاستعانة بمفرزات أو نتائج أو ما يتمخض عن المسار الاقتصادي لتلك الذات؛ والتي وضعت ضمن بعض الأطر النظرية المفسرة ألا وهي مفهوم المركز والأطراف وما يستتبعه بالضرورة الحديث عن مفهوم الاستعمار.

تلك الأطر النظرية والمفاهيمية التي تعبر عن أشكال أو نماذج الصلات والتقاطعات التي حدثت بين الذات الغربية والآخر عموماً والتي

(1) المصدر نفسه، ص 78.

نجمت عن تلك المسارات والحركات الاقتصادية للغرب بوصفها البواعث الرئيسة لأية تفاعلات حدثت فيما بينهما.

وبغض النظر عن الجدالات المستفيضة حول أطروحات المدرسة الانتشارية بين المدافعين والمنتقدين، فإن الفكرة الجوهرية التي يمكن أن نستعين بها لوصف طبيعة حركة الذات الغربية نحو الآخر من جهة وكيف أن هذا الأخير من جهة أخرى تعامل مع كافة العناصر والمواد الثقافية التي وفدت إليه أو استعارها تتمثل هذه الفكرة في رأي فرانز بواس الذي أكد على أن بالإمكان تغيير أوجه التماثل بين ثقافتين في ضوء الانتشار أو التطور المتوازي، وأن من المستحيل التمييز بين هذين الاحتمالين دون بحث وتمحيص دقيقين⁽¹⁾. ولذا يؤكد بواس على أن تسجيل العناصر المتماثلة في ثقافات متباينة لا يمكن أن يشكل بحد ذاته قط برهاناً مناسباً على الاحتكاك التاريخي، إذ يجب أن تتضمن التشابهات عناصر متماثلة مرتبطة فيه بينها بصورة متماثلة لكي تعتبر دليلاً على الانتشار، زد على ذلك أن هذا يجب أن يكون ضمن منطقة محدودة فقط حيث لا يصعب افتراض قيام الاتصالات بين المقتبسين والمقتبس عنهم⁽²⁾.

وسنحاول فيما بعد السعي نحو البحث عن هذه التماثلات الضرورية لإثبات انتشار بعض العناصر الثقافية بين حضارتين مختلفتين في مستوى الإنجاز الحضاري، لاسيما من ناحية امتلاك إحداها القدرة على الابتكار الذي أصبح هو فيما بعد العنصر الثقافي المنتشر وإن كان هذا الأمر يجعلنا قبالة سؤال رئيس قد جرت معالجته سابقاً ألا وهو: هل يوجد مراكز حضارية متنوعة للابتكار أم يوجد

(1) أغر فوج، الانتخاب الثقافي، مصدر سابق، ص 41.

(2) ميلفيل.ج. هوسكوفيتز، أسس الأنثروبولوجيا الثقافية، تعريف: د. رباح النفاخ، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1973م، ص 217.

مركز وحيد للابتكار أثر في بقية الحضارات؟؛ لعل هذا السؤال يمثل منطلقاً مهماً لرؤية عملية الانتشار بين الذات الغربية والآخر.

لكن أليس هذا السؤال آنف الذكر يجعلنا قبالة مسألة مهمة ألا وهي تداعيات مفهومي (المركز والأطراف)، وذلك على اعتبار أنه توجد مراكز أو بالآخرى مركز محدد للابتكارات الحضارية يقابله أو بعبارة أدق يتبعه طرف أو هامش «Maginal».

ولعل ما يؤكد هذه المقاربة أطروحات عالم الأنثروبولوجيا الأمريكي ويسلر حول مبدأ (المركز الثقافي) «Culture Centre» الذي حاول من خلاله التغلب على بعض الصعوبات التي جابهته إثر استغراقه في مفهوم (الأقاليم الثقافية)، إذ افترض ويسلر من خلال هذا المبدأ خروج العناصر الثقافية الأصلية منه إلى الخارج. لكن مفهوم المركز هذا ولد إشكالية منذ بداية طرحه، فالسؤال الذي نواجهه هو كيف يتم الجمع بين الظروف البيئية وبين الحرية الملموسة في حركة الثقافة؟، لكن ويسلر قدم بعض الإشارات الغامضة إلى العوامل العرقية والتاريخية لغرض توضيح علاقة تلك الحقائق. وهو يقول إن أصل المركز الثقافي ينبع من العوامل العرقية (الإثنية) أكثر مما يرتبط بالعوامل الجغرافية. ويكون موقع هذه المراكز مجرد حالة من حالات الصدفة، لكن حاملاً يحصل تبدأ عملية التكيف للمحيط، ومن هنا تلاحظ ضغوط البيئة تؤثر في ثقافتها الخاصة بها على الرغم مما يحصل من تبدل في التركيب البايولوجي واللغوي لأقوامها⁽¹⁾.

ولكن على الرغم من الانتقادات الكثيرة التي وجهت إلى هذا المبدأ والنظرية التي حاول إثباتها ويسلر (نظرية منطقة التاريخ)⁽²⁾. فإن المبدأ يستحق إعادة النظر إليه، لاسيما من خلال مفهومي المركز والأطراف

(1) ينظر : د. قيس النوري، مدارس الأنثروبولوجيا، مصدر سابق، ص 261.

(2) ينظر : ميلفيل. ج. هرسكوفيتز، مصدر سابق، ص 219-220.

الذين لا يقفان عند حدود تعيين مسائل انتشار العناصر الثقافية الذي يستلزم بالضرورة تبعية ثقافية على من استعار كل العناصر الثقافية (على وجه الخصوص)؛ وبالتالي يستلزم تبعية اقتصادية واسعة النطاق أتجاه من يملك عناصر التفوق «Super Stratification» لاسيما إذا علمنا أن المركز وهنا (الغربي) بطبيعته يكره بل يقسر الأطراف على تبعيته، بل تعد الأخيرة إحدى إستراتيجاته التي تحكم شعوره بالتمركز الإثني.

إن مفهومي المركز الأطراف هما مفهومان ذات دلالات جغرافية واجتماعية في آن واحد. فمن الزاوية الاجتماعية تحتل أو ليغارية الشركات الكبيرة المركز، وتحتل الطبقة الوسطى شبه الطرف. بينما يحتل العمال الأقل مهارة والعاطلون عن العمل، الطرف. وعلى الرغم من التحويلات الضخمة لموارد الأطراف إلى المراكز، فقد بات واضحاً أن أوليغارية هذه المراكز لا تتساهل، في اقليمها الخاص بها، مع المجاميع الاجتماعية الأخرى ومن أمثلتها، حالة الأوليغارية البريطانية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، حيث قامت بنهب لا يصدق للثروات في الهند⁽¹⁾.

وفي مقارنة أخرى لمفهومي المركز والأطراف والذين لا يخرجان كثيراً عن ممارسات الدولة القومية للمتاجرة الخارجية (العالمية) عبر الشركات الأوليغارية يربط الباحث جوهن غالتونغ «Johan Caltung» علاقة المركز مع الطرف بالاستعمار، ولكن بطريقة غير واضحة : لان هذا الموضوع بالنسبة إليه يمثل علاقة هيكلية أكثر عمومية من تلك العلاقة القائمة بين جماعتين، إن كلا المفهومين مختلفان، ولكن ليس من هذه الزاوية، لأن الاستعمار لا يوجد بلا تهميش «Peripherization» ولا التهميش يوجد بلا استعمار. وعلى العموم، فإن الأعمال الاستعمارية

(1) أدريانو بينانيون، العولمة نقيض التنمية، ت : جعفر علي حسين السوداني، بيت الحكمة، بغداد، 2002م، ص206.

لم تبرز إلا مع نشوء التركيز في المراكز الرأسمالية. وإن المركز أو بالأحرى الأوليغارشية، تمارس سيطرتها على القطاعات الاجتماعية الموجودة داخل المركز، لأن العلاقة بين المركز والطرف هي علاقة غير متساوية في القوة، في الجانبين السياسي والاقتصادي⁽¹⁾.

ولعله من نافلة القول الإشارة هنا إلى أن هذين المفهومين لهما أهمية كبرى في تبيان نشوء الشركات المتعددة الجنسية وحركتها العالمية نحو «الأطراف» بصفة هذه الشركات إحدى تمددات حركة الذات الغربية (اقتصادياً) عبر الرأسمالية، إضافة إلى كونها إحدى أقدم آليات أو أذرعة العولمة.

وبالتأكيد إن هذين المفهومين جعلنا قبلة الحديث عن الاستعمار «Colonialism» الذي يشير إلى سياسة التتبع القسرية لمراكزه الاستعمارية المتعددة، والتي تفرض على جغرافيات الآخر عبر صهر ذواتهم في القالب الاقتصادي - والثقافي الغربي التماهي مع جغرافيتها المغايرة كلياً لمعطياته البيئية.

ولعل من أبرز هذه القوالب الثقافية (مثلاً لا حصراً) هو موضوع دراسة اللغة الإنجليزية الذي وجد فيه المستعمرون الإنكليز إحدى الوسائل المهمة التي يُستعان بها في السيطرة على المستعمرين. إذ إن اللحظة التاريخية التي شهدت ظهور «اللغة الإنجليزية» بصفتها فرعاً علمياً أكاديمياً قد أنتجت أيضاً الشكل الكولونيالي للإمبريالية في القرن التاسع عشر. فلقد قدم غوري فيواناثان (الذي درس بدايات دراسة

(1) أدريانو بينايون، مصدر سابق، ص 207.

* يشير الاستعمار (الكولونيالية) (Colonialism) في معناه العادي إلى الفترة التي تبدأ من حوالي عام (1500) عندما وسعت الأمم الغربية إمبراطورياتها عبر العالم، فقد تم احتلال الأراضي الإقليمية الأجنبية واستغلالها اقتصادياً في الغالب وإخضاعها للحكم السياسي للأمم الإمبراطورية، ونفذ هذا الاستعمار بعدة طرق، من الاستعمار التجاري إلى ادعاء ملكية الأراضي. لتفاصيل أكثر ينظر كتاب: العولمة المفاهيم الأساسية، مصدر سابق، ص 44-45.

الأدب الإنكليزي في الهند البريطانية) «Gauri Viswathathan» حججاً قوية لربط: الدراسة الأدبية للغة الإنكليزية في المؤسسات، وما ترتب على ذلك من تثبيت لهذه اللغة، بشكل ومحتوى أيديولوجي تطور في السياق الكولونيالي، إذ يقول: وجد الإداريون الكولونياليون البريطانيون الذي أثارته البعثات التبشيرية من ناحية، والخوف من التمرد الأهلي من ناحية أخرى، حليفاً في الأدب الإنكليزي يدعمهم في الاحتفاظ بسيطرتهم على الأهالي تحت قناع التعليم الليبرالي⁽¹⁾.

وهناك عُرف مُميز نال تمجيداً في قلب عملية تشكيل دراسات اللغة الإنكليزية، بصفته قالباً يخدم إنكار قيمة الأدب الطرفي «Peripheral» والهامشي «Marginal» و«غير المُجاز وفق القواعد». إذ أصبح الأدب يتخذ موقفاً مركزياً بالنسبة إلى مشروع الإمبراطورية الثقافي، يمثل ما كان الموقع الذي تشغله الملكية بالنسبة إلى تشكيل الإمبراطورية السياسي. وبالتالي عند ما هددت عناصر من الأطراف أو الهوامش مزاعم الاقتصار على المركز، سرعان ما جرى إدماج تلك العناصر⁽²⁾.

وعلى العموم ففي ظل هذه الحركة الكولونiale تمكنت أوروبا خلال القرون الثلاثة الممتدة من القرن السادس عشر حتى بداية القرن التاسع عشر، من السيطرة على مفاصل الاقتصاد العالمي، فقد وضعت يدها على ذهب أفريقيا وقوتها العاملة (النظام العبودي: الرقيق).

وادی ذلك إلى تدمير حضارات أمريكا لصالح الفاتحين الأوروبيين وانتقال كتل بشرية أوروبية، إلى العالم الجديد، حلت محل الكتل البشرية المباددة، وهنا، لم تكف أوروبا بنقل الثروات إلى المركز، بل ذهب

(1) ينظر: بيل اشكروفت وآخرون، الرد بالكتابة / النظرية والتطبيق في آداب المستعمرات القديمة، ترجمة: د. شهرت العالم، المنظمة العربية للترجمة، نشر مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2006م، ص17-18.

(2) المصدر السابق نفسه، ص18-19.

إنسانها واستوطن مواقع الثروات، موسعاً رقعة حركته الإنتاجية - الحضارية، لاغياً ومدمراً ما دون ذلك⁽¹⁾.

فهل كان الاستعمار الغربي نتاج حركته الاقتصادية (الرأسمالية)؟، وهل نجد مصداقية لقول أحد الباحثين Harry Magdoff : «إن الاستعمار لم يكن مسألة خيار بالنسبة لأي مجتمع رأسمالي، وإنما هو نمط حياته»⁽²⁾؛ لعلنا سنجد بعض الإجابات عن هذه التساؤلات وسواها في متون الفصول القادمة التي تحاول معرفة جذور تشكل الذات الغربية اقتصادياً وما أثر هذا التشكل أو التكون على الآخر الذي تحركت نحوه بشتى الوسائل.

(1) د. حسن الضيقة، الظاهرة الرأسمالية/ نظرة نقدية في التاريخ والايديولوجيا، دار المنتخب العربي، بيروت، ط1، 1994م، ص190.
(2) أدريانو بينانيون، مصدر سابق، ص207.

الفصل الثالث

جذور الاقتصاديات الغربية

الإقطاع وتداعياته

لم يكن الاجتياح البربري لروما، إلا عامل تعجيل لسقوط العالم القديم، أما الأسباب الحقيقية فناشتة عن التطور الداخلي لروما نفسها⁽¹⁾. إذ إن تفكك الإمبراطورية الرومانية يشكل في أوروبا الغربية، على أي حال، أساس انبثاق المجتمع الإقطاعي⁽²⁾. فالحالة الإقطاعية عبارة عن تفكك المجتمعات التي كانت قد توحدت سابقاً تحت السلطة الإمبراطورية لروما. كما أنها تشكل، وإلى حد بعيد نهاية التبادل بين الأماكن البعيدة، الأمر الذي أتاحه السلم الروماني بين البلدان الواقعة على المتوسط. ثم لم يلبث هذا البحر أن صار محاطاً بمجموعات سياسية وثقافية ثلاث تميز وتصارع : الممالك الفرنجية، بيزنطة والإسلام⁽³⁾.

وفي تحليلات معاصرة حول جذور الرأسمالية الغربية يرى عالم الاجتماع أنتوني غدنز احتمالية موافقة كارل ماركس على آراء فردريك إنجلز في كتابه أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة، بخصوص النظام الإقطاعي، والتي يقول فيها: إن البرابرة مضطرون، في مواجهة مهمة إدارة المناطق التي باتت بحوزتهم، إلى تعديل نظام حكمهم الخاص وتبني عناصر من الموروث الروماني. وهذا النظام الاجتماعي الجديد متمركز على الموقع المهيمن للقائد العسكري، ومُنْتَه به تحول القيادة العسكرية إلى نظام ملكي. وهكذا فإن طبقة نبلاء جديدة تتحلق حول بطانة شخصية من الخدم العسكريين، مستكملة بنخبة متعلمة مؤلفة من أعداد من الموظفين والدارسين المترومين⁽⁴⁾.

(1) ينظر تفاصيل ذلك : المصدر السابق، ص71-68.

(2) أنتوني غدنز، الرأسمالية والنظرية الاجتماعية الحديثة، ت: فاضل جنتكر، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 2009م ص71.

(3) جيرار لكليرك، المصدر السابق نفسه، ص75.

(4) أنتوني غدنز، المصدر السابق، ص71.

قرون عديدة من الحروب والاضطرابات الأهلية المتواصلة في أوروبا الغربية تتمخض عن الإفكار الدائم للفلاحين الأحرار الذين يشكلون نواة الجيوش البربرية، وعن تحويلهم اللاحق إلى أقنان لدى النبلاء المحليين من أمراء الأرض، ومع حلول القرن التاسع تصبح القنانة طاغية. ويرى غدنز : من المؤكد أن ماركس يقول في أحد المواقع إن بنية تحتية للنمط البربري (الجرماني) القديم من أنماط التنظيم الاجتماعي تبقى، على امتداد الفترة الإقطاعية، كما يتجلى بوضوح ملموس في بقاء الملكية المشاعية على المستوى المحلي. وهذه البنية التحتية ظلت طوال العصور الوسطى القلعة الحصينة الوحيدة للحرية والحياة الشعبيتين⁽¹⁾.

وعلى العموم لقد احتل النظام الإقطاعي، كما تبدى في القرن العاشر الميلادي في غربي أوروبا، موقعاً خلفياً في غربي أوروبا، فيما وراء حدود الدولة الإسلامية في الأندلس وجزر المتوسط، وفيما وراء حدود الدولة البيزنطية في شرق أوروبا وآسيا الصغرى. وقد تغذى هذا النظام بموجات بشرية متواصلة آتية من الشمال (النورماند) حتى القرن الحادي عشر الميلادي⁽²⁾.

والإقطاعية كنظام اجتماعي لا يختص بطبيعة الواقع الاقتصادي فحسب؛ من وجود إقطاعيات مستقلة عن بعضها البعض الآخر تحت إمرة إقطاعي معين يفرض سياسة إدارية - اقتصادية تنظيمية معينة تعتمد أساساً على القنانة، بل هو نظام يشير إلى مجموعة من السلطات المتنوعة بين التابع والمتبوع بصفته نظاماً سياسياً، إذ يرى أحد الباحثين والذي هو ج. ماكيبه : أن الإقطاعية «ليست طريقة إنتاج» (مع أنها تتطلب اقتصاداً ذا فائض في السلع الاستهلاكية، بل «هي نظام سياسي»، و«أسلوب لتحديد أدوار الحاكم والمحكوم». الواقع الخاص هو

(1) أنتوني غدنز، المصدر السابق، ص 71-72.

(2) د. حسن الضيقة، الظاهرة الرأسمالية، مصدر سابق، ص 72.

الصلة البيشخصية : «فالمؤسسات الإقطاعية تنظم بين شخصين غير متساويين من حيث السلطة علاقات حماية من جهة وعلاقات وفاء وخادمة من جهة أخرى» إنها تربط بين السيد والمقطع (على المستوى العالي من التدرج الاجتماعي) وبين رب العمل والمولى (من مستوى عال إلى مستوى أدنى من التدرج). ويجد ج. ماكيه في ذلك «المضمون العام لفكرة الإقطاعية»، والسمة المميزة التي تسمح ببنائها «كنموذج مثالي»، بالمعنى الذي حدده ماكس فيبر⁽¹⁾.

ولكن من الوجهة الاقتصادية الصرفة تستتبع هذه الوضعية قيام إنتاج موجه أساساً للاستهلاك داخل حدود الإقطاع، وذلك ضمن شروط إنتاجية متدنية للغاية، وبذلك تشكل الزراعة - أي العلاقة بالأرض - أساس النظام الإنتاجي في الإقطاع. ومن هنا هامشية الاقتصاد التبادلي (إن لم نقل انعدامه) وبالتالي هامشية التجارة الداخلية داخل النظام الإقطاعي أو انعدامها⁽²⁾. فأساس الاقتصاد السياسي هنا حسب وجهة نظر (ماركس) قائم على زراعة صغار الفلاحين المنطوية على الأقنان المقيدين؛ وهو مستكمل بصناعات منزلية وإنتاج حرفي في البلدات. غير أن النظام الإقطاعي يبقى اقتصاداً ريفياً في الأساس: إذا انطلق العصر القديم من المدينة ومساحتها الصغيرة فإن العصور الوسطى بدأت من الريف⁽³⁾.

وإذا كان الباحث حسن الضيقة يستند إلى الاقتصادي الفرنسي موريس دوب «Maurice Dobb» في رأيه بأن العلاقة بين السيد والقن، هي علاقة عنف، تفرض على (القن) تقديم خدمات وريوع للسيد، إذ العلاقة برأيه مباشرة بين السيد والقن، وليست هنالك علاقات

(1) جورج بالاندييه، الأنثروبولوجيا السياسية، ت: جورج إي صالح، مركز الانماء القومي، بيروت، ط 1، 1986م، ص 80.

(2) د. حسن الضيقة، مصدر سابق، ص 73.

(3) أنتوني غدنز، مصدر سابق، ص 72.

اقتصادية يتم عبرها وضع اليد على الفائض، وبالتالي : فالعنف هو أداة الاستغلال⁽¹⁾ فإن رأي ماركس خلاف ذلك إذ يقول: ليس ثمة في القنانة إلا مستوى منخفض من الاغتراب بين المنتج وإنتاجه، على الرغم من أن على الكادح أن يتنازل عن كمية معينة من منتوجه للسيد. يبقى القن حسب رأيه: صاحب أرض عاكفاً، عموماً، على إنتاج حاجاته وحاجات عائلته؛ لا يحاول السيد استجرار الحد الأقصى من الربح من عزبته، لعله يميل إلى استهلاك ما هو موجود والحرص بهدوء على ترك الاهتمام بإنتاج ذلك للأقنان والمزارعين [الذين يعملون بالمزراعة]⁽²⁾.

وإذا كانت الإقطاعية تدار من قبل الإقطاعيين والنبلاء في ظل علاقات تراتبية ضاغطة للأقنان مع تمتعها باستقلالية سياسية واقتصادية / اجتماعية واسعة، فإنها في الوقت ذاته كانت ملزمة بتأدية فروض الطاعة والولاء للمركز السياسي (القصر الملكي) والمركز الديني (الكنيسة الكاثوليكية). ولقد تحدث المفكر الاقتصادي الشهير آدم سميث (1723م-1790م) عن سطوة الكنيسة الرومانية ونفوذها من القرن العاشر حتى القرن الثالث عشر. إذ ينظر إليها على أنها تتميز بالسلطة الدنيوية لرجال الدين، وهذه السلطة تقوم بدورها على نفوذ رجال الدين على جماهير الناس. وترتبط المراتب الدنيا للناس برجال الدين عن طريق روابط المصلحة، فالجماهير تعتمد على إحسان يغدق عليهم بحرية؛ لأنه لم تكن لدى رجال الدين وسائل أخرى للتخلص من إنتاج ضخ من أراضيهم⁽³⁾.

ولم تكن الكنيسة مجرد جسم إقطاعي فحسب، فهي إلى جانب هذا الموقع، تحملت جملة مهام أساسية، أولها أنها كانت تشكل القوة الروحية

(1) ينظر : د. حسن الضيقة، مصدر سابق، ص73.

(2) أنتوني غدنز، مصدر سابق، ص72.

(3) ليوشتراوس، جوزيف كروبسي، تاريخ الفلسفة السياسية، الجزء الثاني، ت : محمود سيد أحمد، مراجعة: د. إمام عبد الفتاح إمام، المشروع القومي للترجمة/المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ط1، 2005م، ص261.

الوحيدة التي أدخلت الشعوب الزاحفة من الشمال في المسيحية، ثم أنها هي التي تولت تنشئة مساعدي النبلاء والملوك في مدارسها، فالكنيسة، إلى جانب موقعها الاقتصادي، كانت تشكل أيضاً الجسم الأيديولوجي الذي يؤمن لحمة هذا المجتمع الإقطاعي، إن قدرتها على تجميع عناصرها من فئات النبلاء والعامّة جعلها تشكل فئة متميزة عن كلتا الفئتين⁽¹⁾.

إن أوروبا الإقطاعية شهدت توسعا سكانيا بلغ أوجهه في القرن العاشر والحادي عشر، بعد أن تزودت منذ القرن التاسع وبشكل دوري بموجات جديدة من النورمانيين الآتية من البلاد الإسكندنافية، والذين يحملون منظومة عقائدية ذات طابع يتسم بالعنف، عانت منه أوروبا عبر صراعات دموية بين إقطاعياته التي كانت تمتلك جيوشاً خاصة على حد تعبير (آدم سميث)، والأساس في وجود هذه الجيوش برأيه يرجع إلى أن للنبلاء دخلاً وفيراً من حيث النوع لا يستطيعون في ظل الشروط البدائية للتجارة التي هيمنت بالتالي، أن يتخلصوا منه عن طريق التبادل، أو البيع، ولذلك اضطروا إلى أن يطعموا بها حشوداً من الناس الذين أصبحوا أتباعاً لهم وجنوداً لهم لا محالة⁽²⁾.

وبطبيعة الحال إن هذا التصارع بين الإقطاعيات بعد هذه الزيادة السكانية انما تعكس قلة موارد بلادهم ليس للإقطاعيين فحسب بل وبالدرجة الأولى في الأصل للفلاحين. وقد عرفت هذه الظاهرة باسم الجوع إلى الأرض، والتي تسببت بتلك الحروب، وبذلت الكنيسة كل ما في وسعها لحصر نطاق الحرب في المجتمع الإقطاعي في القرن الحادي عشر الميلادي عن طريق الترويج لحركة «سلام الرب»، ولكن هذه الحركة لم تحرز نجاحاً يذكر⁽³⁾.

(1) د. حسن الضيقة، مصدر سابق، ص 74-75.

(2) ينظر تفاصيل ذلك: د. حسن الضيقة، مصدر سابق، ص 74-76، وليو شتراوس، جوزيف كروبسي، مصدر سابق، ص 262.

(3) ينظر: د. قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ع (49)، 1990م، ص 73-74.

وأمام هذه الحروب الداخلية التي تعكس الأزمات الاقتصادية (قلة الموارد) وصراع الإقطاعيين وأتباعهم وجيوشهم فيما بينهم حولها، والأزمات السياسية «تثبيت الهوية والسلطة» وصراع الملوك أنفسهم مع اطرافهم وتخومهم الإدارية - والتنظيمية السياسية من (أمرأء محليين، ومما سواهم من دوق وكونت)، وجدت الكنيسة وسلطتها العليا «البابا» أربان الثاني urban II (1088م-1099م) في الحروب الخارجية مخرجاً حقيقياً لتلك الأزمات ومما سواها عبر إعلان حملة عسكرية تحت راية الصليب لتحرير بيت المقدس.

إن هذه الحملة لم يكن لها أن تنجح ضمن سياقات المناخ الاجتماعي/الغربي دون أن يكون هنالك تفاعل شديد وترايط متين واتفاق واسع بين رغبات الكنيسة (البابا) أولاً وإرادة السلطة (الملوك) ثانياً، فالرغبة والإرادة حققت عملية التماثل الدقيق بين المقدس والسياسي، ذلك التماثل الذي أفضى بطبيعة الحال إلى صيانة النظام العام للمجتمعات الأوروبية/الإقطاعية وحافظ عليه من الانهيار عبر توجيهه نحو «الخارج»؛ وعلى حد تعبير جورج بالاندييه: فالمقدس والسياسي يسهمان معاً في الحفاظ على النظام القائم، وجدليتهما المتبادلة مماثلة لتلك التي تُولف هذا الأخير، وهما يعكسان معاً الجدلية الخاصة بكل نظام حقيقي أو تخيلي. فإمكانية تكوين كلٍّ منظم، وثقافة ومجتمع، هي التي يجعلها الناس عبر حراس المقدس والمؤمنين على السلطة⁽¹⁾.

لقد أتاحت هذه الأجواء التي نقلت المجتمعات الغربية آنذاك من حرب الاقتصاد (صراعات التنظيم الإقطاعي) إلى اقتصاد الحرب (تحالفات التنظيم العسكري)، لقد أتاحت فرصة تاريخية لإعادة تشكيل اقتصادياتها المنهارة من خلال توافق جميع القوى الاجتماعية (المتناحرة سابقاً) للتوجه نحو بناء مرتكز اقتصادي جديد متأسس على جغرافيا

(1) جورج بالاندييه، مصدر سابق، ص 89.

اقتصادية جديدة يسهم في إدارتها جميع فئات المجتمع الغربي من السلطويين / الحاكمين (الملوك)، والملوك. النبلاء (الإقطاعيين)، الفرسان (المحاربين) - الفلاحين والأقنان (المعتمدين) طلاب بركات حرب التحرير!!.

الحروب الصليبية والآخر:

وفي ظل تلك الضغوط الاقتصادية والسياسية الخانقة للمجتمعات الإقطاعية الأوروبية جاءت الحملة العسكرية نحو الخارج (الآخر الشرقي) في ظل غطاء ديني مصطنع حمل عناوين عديدة منها: الرحلة إلى الأرض المقدسة «Her in terramsantam»، أو حملة الصليب «expedition»، أو مشروع يسوع المسيح، «Negotium Jhesus christi»⁽¹⁾. ففي تلك الأجواء من المشاعر الدينية الملتهبة والأطماع المادية المسيطرة والرغبة في إنقاذ النظام الإقطاعي من الانهيار، اندفع الأوروبيون من كل الأصقاع نحو (بيت المقدس)، فانتصروا على المسلمين في حملتهم العسكرية الأولى 1095م؛ ويشير بعض الباحثين إلى أنهم على الرغم من قلة حجم جيشهم القادم قياساً إلى (الجيش العربي)، إلا أنهم تمكنوا من السيطرة على بعض المدن الأساسية وأهمها إنطاكية، وسائر المدن المحاذية لها ثم استولوا على (بيت المقدس)⁽²⁾.

وبالتالي إن المواجهة التي حصلت فيما بينهم بعد الاقتتال واستقرار ذلك الجيش الأوروبي قد بينت مستوى دقيقاً من العلاقة بين حضارتين تمتلكان نضجاً ثقافياً متفاوتاً؛ فالحضارة الأوروبية آنذاك كانت تمتلك الأدوات العسكرية/التقنية المتطورة قياساً بما تمتلكه الذات الشرقية/الإسلامية من أدوات معرفية ثقافية متنوعة، ولعل توجيه

(1) د. قاسم عبده قاسم، المصدر السابق، ص12.

(2) د. علي السيد علي محمود، ملامح الجانب العربي الإسلامي في المواجهة ضد الغزو الصليبي، مجلة المستقبل العربي التي تصدر عن مركز دراسات الوحدة العربية، ع (102) / 1987/8 م، بيروت، ص41.

الحضارة الغربية صراعها نحو الآخر (الحضارة الإسلامية) إنما كان مرتبطاً برؤية مسبقة عن صورة العدو الذي يجب التوجه نحوه أو بعبارة أخرى استغلال الضغوط الداخلية (الصراعات الإقطاعية) وبالتالي توجيهها نحو الخارج (العدو) الواجب توجيه الصراع نحوه، وعلى حد تعبير مكسيم رودنسون: بخلاف ما قيل، ليست الصليبية هي التي تولد صورة عن الإسلام بقدر ما أن الوحدة الأيديولوجية للعالم المسيحي اللاتيني المصهورة ببطء هي التي تفضي بأن معاً إلى توضيح صورة العدو وإلى توجيه الطاقات نحو الحروب الصليبية⁽¹⁾.

ذلك العدو بالنسبة لهم ومنذ القرن السابع الميلادي (ظهور الإسلام) كان يمثل مركزية عالمية، حاول الغرب دفعها بكل الأشكال لكي يقيم بدلاً منها مركزيته الأوروبية؛ إذ إن من الواضح أن أي رغبة في صناعة هذه المركزية إنما تعتمد على توافر مجموعة من العناصر الضرورية التي تدفع هذا الطرف أو ذاك إلى التمدد على حساب بعضه البعض الآخر وحسب المبررات أو الدوافع التي يسوقها كل طرف، وبعبارة أخرى وعلى حد رؤية صموئيل هنتغتون الذي يجد أن مستوى الصراع العنيف بين الإسلام والمسيحية عبر الزمن كان يتأثر دائماً بالنمو الديموغرافي وهبوطه، وكذلك بالتطورات الاقتصادية والتحول التكنولوجي وشدة الالتزام الديني. فانتشار الإسلام في القرن السابع برأيه: كان مصحوباً بهجرات كثيفة من الشعوب العربية لم يسبق لها مثيل من ناحية «الحجم والسرعة» إلى أراضي الإمبراطوريتين البيزنطية والساسانية، وبعد ذلك بقرون قليلة كان الصليبيون، إلى حد كبير، نتاجاً للنمو الاقتصادي والتوسع السكاني في أوروبا القرن الحادي عشر والتي جعلت من الممكن تعبئة أعداد كبيرة من الفرسان والفلاحين من أجل المسيرة نحو الأرض المقدسة⁽²⁾.

(1) مكسيم رودنسون، جاذبية الإسلام، ت: إلياس مرقص، دار التنوير، بيروت، ط2، 2005م، ص17-18.

(2) صموئيل هنتغتون، صدام الحضارات، مصدر سابق، ص341.

وعلى العموم تمثل تلك المرحلة الممتدة من القرن الحادي عشر الميلادي إلى القرن الثالث عشر (قرون الحروب الصليبية) مرحلة مهمة يعزو الطاهر لبيب أهمية التوقف الدائم عندها، لسببين هما: الأول: إنها كانت منعطفاً تاريخياً في العلاقة بين الشرق الإسلامي والغرب، والثاني: إن الذاكرة الجماعية لم تتوقف، حتى اليوم، عن استحضارها في الأزمات والمواجهات كمرجعية للعداء الغربي ولإمكانات مقاومته في آن واحد⁽¹⁾.

وبشكل عام تمثل الحروب الصليبية باكورة عصر التوجه الغربي نحو صناعة الاحتواء العالمي من جهة، وطبع العالم المغربي بطابع منتجاته الاقتصادية وقواعده الثقافية وأنظمتها القطاعية من جهة أخرى.

تفكك القطاعية وبدايات الرأسمالية:

أما تفكك النظام الإقطاعي، والتطور المبكر للنظام الرأسمالي، فمشروطان بنمو المدن. ويشدد ماركس على أهمية انبثاق الحركات البلدية في القرن الثاني عشر، تلك الحركات التي كانت ذات «طابع ثوري» والتي شكلت سبباً لحصول الجماعات الحضرية على درجة عالية من الاستقلال الإداري. وكما في العصر القديم، فإن تطور المراكز الحضرية [المدينية] يسير جنباً إلى جنب مع تشكل رأس المال التجاري والربوي، ونظام نقدي يعتمد على المرابون، رأسمال دائب على الفعل بقوة ناسفة للنظام القائم على الإنتاج الزراعي⁽²⁾.

ومن الواضح أن الحروب الصليبية هي التي أسهمت إسهاماً كبيراً في نمو وتوسع دور المدن الإيطالية. حيث اعتبرت الجمهوريات التجارية الإيطالية المستفيد الأساسي من الحروب الصليبية، خاصة في الحملة

(1) د. الطاهر لبيب، الآخر في الثقافة العربية، ورقة عمل قدمت إلى ندوة: صورة الآخر/العربي ناظراً ومنظوراً إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 1999م، ص222.
(2) أنتوني غدنز، مصدر سابق، ص73.

الثالثة ذات الطابع البحري. والأرباح التي جنتها المدن الإيطالية عبر تجارتها، امتد أثرها إلى كامل أرجاء شبه الجزيرة الإيطالية، وكان من إحدى نتائجها انطلاقة اقتصادية مدنيّة وفنيّة، كانت في أساس عصر التنوير (في القرن الثالث عشر)؛ وبذلك أمنت هذه المدن دوراً مركزياً في العمليات التجارية الناشئة والمرافقة للحملة الصليبية⁽¹⁾.

ومع أن المحتمل أن تكون حفنة من البلدات قد بقيت صامدة منذ أيام الإمبراطورية الرومانية، فإن تطور المراكز المدينية إلى مراكز تجارية وتصنيعية غنية لا يبدأ فعلاً إلا في القرن الثاني عشر؛ وهذه المراكز مأهولة بأقنان أحرار في المقام الأول. إن نمو التجارة يحفز على نوع من التوسيع المتعاضم باطراد لاستخدام النقد، والتبادل البضاعي بالتالي، في اقتصاد إقطاعي ريفي كان مكتفياً ذاتياً. وهذا يسهل تنامي الربا في المدن؛ يدفع نحو تدهور أحوال الأرستقراطيين من ملاك الأراضي ويمكن الفلاح الأكثر ازدهاراً من شراء التزاماته إزاء السيد بالمال أو التحرر من تحكم الأخير كلياً⁽²⁾.

وبشكل أكثر تحديداً، فإنه اعتباراً من القرن الرابع عشر كانت هنالك علامات عديدة تشير إلى الأهمية المتزايدة للتجارة في كل من الريف والمدن، وتفكيك الإقطاع والاستعاضة عنه بالصورة الضعيفة نسبياً للاستبداد الملكي الخاصة بإنجلترا، حيث جرى الأمران في إطار صراع ديني مرير إلى حد كبير؛ كان في جزء منه انعكاساً للقلق والمرارة المصاحبين بالضرورة لانهايار نوع من الحضارة وظهور نوع جديد، وفي جزء آخر سبباً لهما⁽³⁾. إذ مع حلول نهاية القرن الرابع عشر في إنجلترا باتت القنانة شبه مختفية. ومهما كانت عناوينها الإقطاعية فإن الكتلة

(1) د. حسن الضيقة، مصدر سابق، ص 84.

(2) أنتوني غدنز، المصدر السابق، ص 73.

(3) بارينجتون مور، الأصول الاجتماعية للدكتاتورية والديمقراطية / اللورد والفلاح في صنع العالم الحديث، ت: أحمد محمود، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط 1، 2008، ص 28.

الواسعة للجماهير السكانية الكادحة في ذلك البلد مؤلفة في ذلك التاريخ من فلاحين أحرار مالكين. أما مصائر القنانة فشديدة التباين، بالطبع، في أجزاء أوروبا المختلفة، إضافة إلى أن القنانة تعيش في بعض المناطق فترات انتعاش⁽¹⁾.

وعلى العموم تعد إنجلترا بنظر أغلب المؤرخين الاقتصاديين وحتى المفكرين الاجتماعيين (أمثال ماركس) النموذج الاقتصادي الأبرز في التحول نحو الرأسمالية لاسيما في ظل الحروب الإقطاعية الكبرى التي استنزفت أموال النبلاء والملوك الكبار : لكن المسألة المهمة التي سرعت في التحولات الاقتصادية تلك تتمثل بتجارة الصوف وما استلزمه من عمليات إضعاف للزراعة عموماً. وفي تفعيل نسبي لهذه المسألة نبين بعض آراء بارينجتون مور الذي يرى : مع أن تجارة الصوف كانت معروفة منذ زمن بعيد في إنجلترا، إلا أنها بحلول العصور الوسطى كانت قد أصبحت أكبر وأهم مصدر للصوف الفاخر، ولم يقتصر الإحساس بأصداء تجارة الصوف على المدن وحدها (على حد رأيه)، بل كانوا يحسون بها في الريف كذلك ربما بشكل أكبر، ومن المؤكد أنها كانت محسوسة في السياسة كذلك⁽²⁾.

فعلى صعيد الطبقات السياسية العليا يرى مور أنه خلال : الجزء الأخير من القرن الرابع عشر وقدر كبير من القرن الخامس عشر، كانت هناك تغيرات مهمة تجري في وضع تلك الطبقات، ذلك أن الأرض وعلاقات الحيازة القائمة عليها لم تعد هي ذلك الرباط الذي يربط مالك الأرض بالعامل الزراعي. ومع أن جوانب أخرى من الإقطاع ظلت على قوتها، وكان الملك يحاول لفترة طويلة، ويقدر متفاوت من النجاح، تحويل تلك الترتيبات لمصلحته، حيث كان يعمل داخلها لتقوية سلطته.

(1) أنتوني غدنز، المصدر السابق، ص73.

(2) بارينجتون مور، المصدر السابق، ص29.

وبعد فصل الإقطاع عن جذوره في الأرض أصبح متطفلاً، حيث كان يستمد قوته من مناورات وجهاء القوم الأقوياء والحركات المضادة من جانب الملك⁽¹⁾.

وهذه المعالم الجديدة بدأت تأخذ حيزها الفعلي بعدما سمي آنذاك بحروب الورود (1455-1484)، ولاسيما بعد فرض أسرة تيودور السلام بالقوة على الإقطاعيين الكبار، ولقد ولد سلام أسرة تيودور ومعه حافز تجارة الصوف المستمر حافزاً قوياً لنمو النظرة التجارية، بل والرأسمالية في الريف. إذ في أيام القرن الخامس عشر المضطربة كانت لا تزال للأرض أهمية عسكرية واجتماعية بالإضافة إلى قيمتها الاقتصادية، فكان اللوردات يخرجون على رأس خدمهم لإقناع جار سيء بالأقواس والرماح، وكان المستأجرون كثيرون العدد أكثر أهمية من العائد المادي من الأرض. وكان نظام أسرة تيودور، بمنعه الصارم لزي الخدم الخاص وللإعالة، وبصلاحياته الإدارية وبيروقراطية النشطة، قد أوقف الحروب بالقمع، وجعل قيادة المال أهم من قيادة الرجال ويميز هذا التغير برأي مور التحول من تصور العصور الوسطى للأرض على أنها أساس الوظائف والواجبات السياسية إلى الرؤية العصرية لها باعتبارها الاستثمار الذي يولد الدخل، وباختصار مالت حيازة الأراضي إلى أن تصبح مصبوغة بصبغة تجارية⁽²⁾.

إن الذي أسهم في الدفع نحو بروز الرأسمالية الزراعية هنا هو عملية السياجات. فخلال القرن السادس عشر كان الأهم هو التعديلات التي يقوم بها أصحاب الضياع أو فلاحوهم على الأراضي التي كان لسكان الضياع حقوق مشتركة فيها، وتقع ضمن الحقول الزراعية المفتوحة. وبدافع من توقع تحقيق الأرباح من بيع الصوف أو من خلال

(1) المصدر السابق نفسه، ص 29-30.

(2) ينظر : المصدر السابق نفسه، ص 30-31.

تأجير أراضيهم لمن يبيع الصوف، مما يزيد إيجاراتهم، وجد أصحاب الضياع مجموعة من الطرق القانونية وشبه القانونية لحرمان الفلاحين من حقوقهم الخاصة بالزراعة في الحقول المفتوحة⁽¹⁾.

وكان صغار الملاك القوة الرئيسة وراء سياجات الفلاحين. وبما أن السياجات كانت موجهة نحو الأرض من أجل فلاحتها، فقد كانت هذه السياجات مختلفة عن تلك الخاصة بمربي الأغنام من كبار ملاك الأراضي، فقد كانت في المقام الأول شكلاً من أشكال الاستيلاء التدريجي على الأراضي البور، والأراضي المشاع. وفي كثير من الأحيان على حقول الجيران، بما في ذلك أراضي الملاك الذين لا يحتفظون بمراقبين أشداء للدفاع عن حقوقهم⁽²⁾.

ويرى ماركس أن عملية التجريد من الملكية هذه تكتسب في القرن السادس عشر دافعاً جديداً ومخيفاً من حركة الإصلاح الديني؛ فالمساحات الواسعة من أراضي الكنيسة تمنح لمحظيي الأسرة المالكة أو تباع برخص إلى مضاربين يسارعون إلى طرد المزارعين الوارثين وتعزيز الحيازات داخل وحدات كبيرة. أما الفلاحون المجردون من أرضهم فيتحولون زرافات ووحداناً إلى جيوش من المتسولين، المتشردين، جراء ضغط الظروف وفي أكثر الحالات تتم مواجهة المشكلة بإصدار تشريعات شرسة ضد التشرّد، تشريعات تقوم بإخضاع الكتلة السكانية المتشرّدة إلى الانضباط الضروري لنظام الأجر⁽³⁾.

وعلى صعيد تفكك الإقطاع والتحول نحو الرأسمالية في المجتمع الفرنسي نجد تناقضات كثيرة مع مجريات المجتمع الإنجليزي، إذ يرى مور أن : المجتمع الفرنسي كان سبيل دخوله العالم الحديث مختلفاً

(1) بارينحتون مور، المصدر السابق، ص33.

(2) المصدر السابق، ص35-36.

(3) أنتوني غدنز، المصدر السابق، ص75.

جداً، فبدلاً من أن تشق طبقة النبلاء الفرنسية، أو بشكل أكثر دقة قطاعها الرائد، طريقها من خلال درجة كبيرة من الاستقلال، باتت ملكاً من أملاك العاهل الفرنسي، الغرض منه هو الزينة والتباهي، ورغم تعديل هذا الاتجاه في الجزء الثاني من القرن الثامن عشر، فقد كانت النتيجة النهائية القضاء على الطبقة الأرستقراطية، فبدلاً من أن تتحول طبقة ملاك الأراضي العليا إلى الزراعة التجارية على الطريقة الإنجليزية، نجد أن فرنسا في عهد أسرة البوربون الملكية كان بها في المقام الأول طبقة نبلاء تعيش على ما يمكن لها استخراجها من خلال الالتزامات المفروضة على الفلاحين، وبدلاً من القضاء على أملاك الفلاحين نراها تتعزز تدريجياً قبل الثورة وبعدها؛ وتختلف التصنيع والتجارة في فرنسا عن التصنيع والتجارة في إنجلترا، واختلفت كل المتغيرات الهيكلية والاتجاهات التاريخية في المجتمع الفرنسي إبان النظام القديم اختلافاً شديداً عن تلك المتغيرات والاتجاهات في إنجلترا منذ القرن السادس عشر حتى القرن الثامن عشر⁽¹⁾.

وعوداً على المجتمع الإنجليزي، فإن ماركس لا يعد جملة هذه التغيرات التي حصلت فيه والتي سبق ذكرها، شروطاً كافية لظهور النظام الرأسمالي، إذ يرى: أن أحد العوامل المهمة الذي حفز على التطور السريع نحو الرأسمالية هو الانتشار السريع والواسع للتجارة البحرية التي تتطور نتيجة لجملة الاكتشافات الجغرافية المذهلة التي تمت في العقود الأخيرة من القرن الخامس عشر؛ وفي طليعة هذه المآثر اكتشاف أمريكا والدوران حول الرأس (الرجاء الصالح)، اللذان أضفيا على التجارة، على الملاحة، وعلى الصناعة زخماً لم يعرف من قبل قط، فأصبغا على العنصر الثوري في المجتمع الإقطاعي المتداعي تطوراً عاجلاً⁽²⁾.

(1) بارينجتون مور، المصدر السابق، ص 69.

(2) أنتوني غدنز، المصدر السابق، ص 75-76.

مسألة الآخر (أمريكا المكتشفة):

تعد مرحلة اكتشاف أمريكا عام 1492م، من المراحل المهمة ليس في تاريخ الاستكشافات البحرية وأثر ذلك على تطور التجارة العالمية فحسب، بل لكونها جعلت الأوروبيين آنذاك وهم في بدايات عصر الأنوار على أعتاب مرحلة جديدة من خلال التعامل مع العوالم المجهولة والمجتمعات المغايرة لهم تماماً، ولعلها تمثل في حقيقة الأمر بداية التساؤل عن الاختلافات والتشابهات بين الذات الأوروبية وذلك الآخر المكتشف.

وتعد رحلة كريستوفر كولومبس «C. Columbus» (1451-1506م) إلى الأمريكتين واكتشافه لهما، رحلة من ضمن عدة رحلات بحرية سبقتها⁽¹⁾؛ ولكن لرحلته آنفة الذكر أهمية خاصة من الناحية الأنثروبولوجية، إذ نجد أن مذكرات كولومبس عن رحلته، ومشاهداته، واتصالاته مع أهالي العالم الجديد قد زخرت بالمعرفة والبيانات والتفصيلات الإثنوجرافية. ويرى الدكتور حسين فهميم: أن كتابات كولومبس اتصفت بالميل نحو الموضوعية ومحاولة تقصي الأسباب وراء ما شاهده، أو سمع عنه من تقاليد أو طقوس أو ممارسات يومية، وتلك صفة قلما وجدت في الكتابات الإثنوجرافية التي كانت سائدة حينذاك⁽²⁾.

وفي قراءة معاكسة لذلك الرأي يرى الأستاذ منذر الكيلاني أن كولومبس ومعاصريه كانوا يمتلكون فكرة مسبقة عن العالم الجديد (المكتشف) تصوروا ضرورة وجودها لزماً؛ وعلى حد قوله: فلئن أنشأ كولومبس خطاباً عاماً حول الآخر من دون أن يكون قد رآه بعد حق الرؤية، فلأنه لن يفلح في رؤيته إياه إلا عبر خطاب سابق على الاتصال. لقد كانت لكولومبس ومعاصريه أيضاً فكرة مكونة سلفاً عما يشاهدون.

(1) ينظر تفاصيل تلك الرحلات: د. حسين فهميم، قصة الأنثروبولوجيا، مصدر سابق، هامش، ص 110-111.

(2) المصدر السابق، ص 82.

لقد كان منذ البدء تحت تأثير الهدف الذي ترمي إليه سفركه، وتحت تأثير الاسطورة التي كانت في أصلها: البحث عن جنة عدن، كان ينتظر أن يرى السكان عراة ما داموا على الحالة الأصلية. لم يصف كولومبس ما شاهده وإنما ما يشاهد، أو بالأحرى ما كان ينتظر مشاهدته، فجاء الوصف مناسباً لأسطورة الفردوس المفقود⁽¹⁾.

فلقد وصف كولومبس أهالي جزر الكاريبيان بالمحيط الأطلسي على النحو الآتي: 'ن أهل تلك الجزيرة (وكل الجزر الأخرى التي اكتشفتها أو التي وصلتني معلومات عنها) عراة، سواء أكانوا رجالاً أم نساء، تماماً كما ولدتهم أمهاتهم، إنهم ليست لديهم أسلحة سواء من الحديد أو الصلب، وهم لا يصلحون لاستخدامها على أية حال. ولا يرجع السبب في ذلك إلى أن أجسادهم غير قوية، أو قوامهم غير معتدل ولكنهم وجلون (مسالمون) بشكل يستحق الإعجاب، ليست لديهم أسلحة سوى تلك المصنوعة من القصدير والتي تتخذ شكل حراب ذوات حد واحد. وحتى عندما أرسلت رجالي إلى الشاطئ لم يستخدموا تلك الأسلحة حيث اعتزلتهم حالة من الفزع'⁽²⁾.

وفي رسالة أرسلها كولومبس إلى ملك إسبانيا، والتي شاع مضمونها في أنحاء كثيرة في أوروبا، وصف «الأهالي» الذين رآهم وتقابل معهم

* يرى المفكر المعروف ميرسيا ألياده: لم يكن ينتاب كريستوف كولومبس أي شك في أنه قارب الوصول إلى الفردوس الأرضي. إذ كان يعتقد أن التيارات المائية العذبة التي لقيها في خليج باريا إنما تنبع من لأنهار الأربعة التي تروي جنة عدن. ولم يكن البحث عن الفردوس الأرضي عند كولومبس وهماً أو خيالاً. فقد كان هذا البحار الكبير يسبغ مغازي ودلالات أخرى على اكتشافاته الجغرافية، وكان العالم الجديد بالنسبة له أكثر من قارة جديدة تفتح أمام نشر البشارة المسيحية. فقد كان لاكتشاف القارة الجديدة بعد ذاته بعد أخرى. ينظر كتابه: البحث عن التاريخ والمعنى في الدين، ترجمة وتقديم: د. سعود المولي، المنظمة العربية للترجمة، نشر مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 2007، ص191.

(1) منذر الكيلاني، الاستشراق والاستغراب/اختراع الآخر في الخطاب الأنثروبولوجي، ورقة عمل قدمت إلى ندوة: (العربي ناظراً ومنظوراً إليه)، مصدر سابق، ص76.

(2) د. حسين فهمي، المصدر السابق، ص83.

عقب اكتشافه الكبير، أنهم ليسوا بعمالقة أو أفرادٍ ممسوخة الخلقة «Monsters»، وإنما هم متوحشون «Savages»؛ بمعنى أنهم غير متحضرين Uncivilized على النحو الذي كان عليه الإنسان الأوروبي حينذاك، كتب كولومبس واصفاً سكان أمريكا الأصليين: أنهم يتمتعون بحسن الخلقة، والخلق، وقوة البنية، وإنهم يشعرون بأنهم أحرار فيما يملكون لدرجة أنهم لا يترددون في إعطاء السائل ما يطلب من مقنيااتهم، كما أنهم يقتسمون ما عندهم مع غيرهم برضاء وسرور⁽¹⁾.

ولعلنا نلاحظ لدى كولومبس هنا نزوعه الشديد للانتماء إلى الحضارة الأوروبية بصفتها تمثل مرجعية عالمية لسائر الثقافات والحضارات المكتشفة، وهذا بطبيعة الحال يعبر عن الشعور بالمركزية الإثنية، التي تجلت هنا بإظهار مظاهر التفوق (الحضري) إزاء الآخر «المتوحش» غير المتحضر، إذ نلاحظ هنا أن كولومبس عد حضارته مقياساً تقاس به سائر الحضارات الأخرى.

ومن هنا نفهم كيف أن اختراع أمريكا يكمن حقاً في سلسلة المقارنات هذه، إن المكتشفين يخترعون العالم الجديد بوساطة الحركة عينها التي بمقتضاها ينسبونه إلى ما هو معلوم من قبل. إن هذا الصنف من الإجراء الوصفي هو الذي تحكم منذ البداية في الخطاب حول الآخر ضمن التقليد الغربي. يقحم الآخر داخل متن من التمثيلات الوهمية والمعتادة، فيحصل ترويضه وتحييده بوساطة ثقافته هو بعينه. هكذا يمر فهم الآخر دائماً عبر بلاغة الأخيرة التي تنتمي مقولاتها وغاياتها إلى الملاحظ بعينه لا غير⁽²⁾.

وليس من المستغرب في ظل هكذا إجراء أن تطرح التساؤلات حول هذا الآخر المكتشف على النحو الآتي: هل الشعوب التي لم تعرف من

(1) المصدر السابق، ص 83-84.

(2) منذر الكيلاني، المصدر السابق، ص 76.

قبل والتي أمكن التعرف عليها عن طريق الاستكشافات تنتمي إلى النوع نفسه الذي ينتمي إليه الإنسان الغربي، ومن ثم يتحتم المحافظة على أرواحها؟ وكانت الإجابة بالإيجاب هي الإجابة التقليدية، ولكن كانت هناك مشكلة واحدة كان يجب التحقق منها اعتماداً على الجداول الجينالوجية في سفر التكوين. ونالت القبول النظرية التي تقرر أن الهنود الأمريكيين هم بقايا القبائل العشر المفقودة، في الوقت الذي كانت هناك نظريات أخرى أكثر جرأة، ترى على أساس من التخمين أن في الإمكان وجود شعوب لا تنتمي إلى آدم (الشعوب السابقة على آدم) «The pre - Admites»⁽¹⁾.

ونلاحظ هنا أن مقررات الكتاب المقدس (سفر التكوين) كانت هي العماد الرئيس لأجل وضعهم في خانة الأدميين، ولعل هذا الأمر يؤكد أطروحات الكيلاني آنفة الذكر بخصوص آليات تعامل الغربيين مع الآخر المكتشف، والتي لا تنفك من أن تنطلق من الأشياء المألوفة والمختبرة في العالم القديم وبكل حيثياته (الديانات، الحضارات، الثقافات) وما ينبع عن كل ذلك من منجزات، والتي يتم في ضوءها تحليل ما اكتشف في العالم الجديد.

بعد أن تبين أن كولومبس وسواه من طلائع المستكشفين قد اكتشفوا حقاً العالم الجديد، عملت القوى البحرية الأوروبية الغربية على تحويل الحملات الاستكشافية، وكان الإسبان أول من أصابوا نجاحاً وتحققت

(1) د. حسين فهمي، المصدر السابق، ص 84-85.

* في هذا الجو المفعم بالمسيحية والنشورية جرت البعثات العابرة للمحيطات، والاكتشافات الجغرافية التي خضت أوروبا الغربية وغيّرتها تغييراً جذرياً، ففي كل مكان من أوروبا اعتقد الناس بولادة جديدة وشيكة للعالم على الرغم من أن أسباب هذه الولادة الجديدة كانت متعددة وأحياناً متضاربة، وإثر ذلك على رأي مرسيا إلياده: بدأ استعمار الأمريكيتين تحت شعارات حملت رموزاً أخروية، إذ إن الناس يرون أنه قد آن الأوان لتجديد العالم المسيحي، وأن التجديد الحقيقي إنما يكون في العودة إلى الفردوس الأرضي، أو على الأقل في استئناف بدايات التاريخ المقدس واستعادة الأحداث المذهلة التي يتحدث عنها الكتاب المقدس، ينظر كتاب: مرسيا إلياده، المصدر السابق نفسه، ص 192.

لهم الثروة مع فتحهم المكسيك، ثم البيرو بعد عشر سنوات. ثم بدأت كميات هائلة من الذهب والفضة والأحجار الكريمة تتدفق إلى إسبانيا التي تحولت نتيجة ذلك إلى قوة مهيمنة في أوروبا⁽¹⁾؛ إذ وصل الإسبان إلى أمريكا عام 1495م، مما جعلها وفق التطورات المتسارعة آنفة الذكر حاكماً للعالم، لاسيما في عهد فيليب الثاني (1557-1598م)⁽²⁾.

إن عملية الحصول على هذه الثروات وبناء مركزية عالمية كانت على حساب السكان الأصليين الذين تعرضوا لعمليات إبادة ونفي؛ إذ قضى الإسبان على أقدم حضارتين في تلك الأرض المفتوحة عنوة ألا وهما حضارتا (الآزتيك والأنكا). فحضارة «الآزتيك» التي كانت تعد قرابة (25) مليون نسمة في القرن الخامس عشر، في وادي المكسيك، لم يبق منها إلا مليون نسمة. وفي أمريكا الجنوبية كانت حضارة «الأنكا» ممتدة من خط الاستواء حتى أواسط التشيلي، وعند وصول الفرنجة 1532م، كانت هذه الحضارة في أوج ازدهارها، وقد قام الإسبان بتصفية هذه الحضارة لامتيازات في تقنياتهم الحربية (استعمال الأسلحة النارية)، وليس لأي امتياز على المستوى الإنتاجي وتقنياته، لقد كانت هذه الشعوب قد طورت زراعة الذرة، وكانت الكيمياء قد ازدهرت لديهم ازدهاراً كبيراً، وكان لهم من ناحية أخرى تقويم أدق من تقويم أوروبا في ذلك العصر⁽³⁾.

ولم تكن عملية استعمار أمريكا تلك تنفصل عن آليات ثقافية يمارسها المستعمر الإسباني إلى جانب الآليات الأخرى التي أشرنا إلى بعضها آنفاً؛ فلقد بين تزفيتان تودوروف «Tzvetan Todorov» في كتابه «فتح أمريكا» بأن البعد الأساسي للاضطهاد الكولونيالي هو في

(1) جون ستيل جوردون، إمبراطورية الثروة/التاريخ الملحمي للقوة الاقتصادية الأمريكية، الجزء الأول، ت: محمد مجد الدين باكير، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ع (357)، 2008م، ص 20.

(2) ينظر: د. حسن الضيقة، الظاهرة الرأسمالية، مصدر سابق، ص 104.

(3) المصدر السابق، ص 115 116.

السيطرة على وسائل الاتصال وليس السيطرة على الحياة والممتلكات أو حتى اللغة نفسها.

إذ إن حملة كورتز Cortez «القائد الإسباني» ضد الأزتك «Aztecs» تُفسر باستيلاء الإسبان وهيمنتهم منذ البداية على وسائل الاتصال. وترتكز ثقافة الأزتك الشفاهية على تفسير طقوسي وتعاقبي للواقع، وتكمن مشكلتها ببساطة في عدم تصور تخطيطها للأشياء لوصول كورتز غير المتوقع. ونتيجة لذلك، كما يجادل تودوروف، لم يشكل لقاء الأزتك والثقافة الإسبانية شيئاً أقل من شكلين غير متناسبين تماماً من أشكال التواصل، فالتواصل لدى الأزتك يوجد بين الإنسان والعالم، لأن المعرفة تبدأ دائماً من واقع مُحدد ومُرتب ومُعطى بالفعل، ومن الناحية الأخرى، فإن التواصل الأوروبي- رغم أنه ليس مسألة آلية وحتمية، كما نرى من افتقاد كولومبوس الوثام مع الهنود- يوجد بين الإنسان والإنسان. ويُعتبر عامل التمكين في أي مشروع كولونيالي هو المبدأ الذي يراه تودوروف مركزياً- السيطرة على وسائل الاتصال، لكن تعديلات المستعمر لا يصاحبها دائماً الارتباك الذي استبد بالأزتك، بينما كانت السيطرة تتجلى دوماً من خلال سلطة مفروضة على نسق من الكتابة، سواء كانت الكتابة موجودة بالفعل أو غير موجودة في الثقافة المستعمرة⁽¹⁾.

وتأسيساً على نظرية الانتخاب الثقافي المبينة سابقاً، يتضح لنا أن هذه الحضارات ومجتمعاتها هي الأقرب إلى الثقافة الكاليبتيّة Kalypitic culture لأنها انتخبت هذا الشكل الثقافي لأنها معزولة جغرافياً على جزر بحرية، إضافة إلى كونها لا ترى ضرورة لوجود قوة عسكرية تبذل عليها مواردها الاقتصادية، ما دام لا يهدد أمنها شيء، ولكن

* يمكن مقارنة ذلك بما تفعله العوامة وآلياتها المتنوعة الآن عبر إحلالها ثقافة الصورة محل الثقافة المكتوبة للأمم.

(1) بيل اشكروفت وآخرون/ الزد بالكتابة، مصدر سابق، ص 140.

بطبيعة الحال هنا فوجئت هاتان الحضارتان (الأزتيك والأنكا) بحضارة تركز على الثقافة الرجالية Regal culture أي (الإسبان)؛ عبر امتلاكهم قوة عسكرية أنشئت أصلاً لمواجهة القوى العالمية الموجودة آنذاك من (برتغاليين وهولنديين وفرنسيين وإنكليز)، إضافة إلى أنها وجدت في هذه الثقافة مجالاً رحباً للتوسع السياسي والثقافي، ذلك التوسع المرتكز بالأصل على التوسع العسكري الطامح أو الراغب في تحسين اقتصاديات مجتمعه على حساب «الآخر».

ويمثل تحرك الإسبان ومن رافقهم أو تبعهم في التحرك نحو «الآخر» أحد معطيات أطروحات فالرشتاين (السابق ذكرها) والتي تكشف لنا أن الأوروبيين تحركوا في علاقتهم مع الحضارات والمجتمعات الإنسانية الأخرى من منطلق «الاقتصاديات - العوالم» التي عكست تمدد الجسم الاقتصادي الأوروبي بوسائل عسكرية على حساب جغرافيات كثيرة، هذا التمدد الذي عكس بطبيعة الحال امتلاكه تقنيات كثيرة لاسيما (العسكرية) منها على وجه الخصوص، والتي ارتكزت أصلاً على السفن البحرية عابرة المياه العالمية، لاسيما بعد الاستكشافات البحرية الهائلة؛ فحركة «الاقتصاد - العالم» إنما تعبر عن الشعور بالقوة أو الرغبة في الحصول على المزيد منها عبر السيادة العالمية على مفاتيحها الأولية «البحار» التي تدفع بالضرورة نحو الجزر أي (الآخر) وثرواته.

وفي هذا الإطار نجد أن البرتغاليين يمثلون إلى جانب الإسبانين آنذاك قوة بحرية - استعمارية لا يستهان بها، وذلك بفضل الاستكشافات البحرية التي تعود معظمها لمستكشفيها، فمثلاً استطاع برتاليمي دياز عام 1487-1488م من الوصول إلى رأس الرجاء الصالح، وعام 1497م اكتشف فاسكو دي غاما طريق الهند انطلاقاً من رأس الرجاء الصالح. فوصل عام 1498م إلى كلكوتا؛ واستطاعت مراكبه الثلاثة أن ترسي مراسيها وسط دهشة التجار المسلمين الذين يجوبون هذه المدينة⁽¹⁾.

(1) جيرار لكرك، العولمة الثقافية، مصدر سابق، ص 94.

وعلى العموم يعتبر القرن السادس عشر قرن السيطرة البرتغالية في آسيا وفي المحيط الهندي. وكانت شبكة بحرية كثيفة تربط بين هرمز وكولومبو وملقة وماكاو وناغازاكي. من خلال هذه الشبكة استطاعت أوروبا أن تنظم أول شبكة تجارية عالمية. فجنوى والبندقية قد استطاعت خلق شبكة تجارية في المتوسط وفي البحر الأسود. مع تقدم الإمبراطورية العثمانية ومع اكتشاف أميركا حصل نوع من فك الارتكاز، بالتحول نحو الأطلسي مع الإسبان، ونحو المحيط الهندي مع البرتغاليين. كان دخول الأساطيل البرتغالية إلى المحيط الهندي بمثابة ضربة تجارية وسياسية كبرى أصابت السيطرة الإسلامية في بحار الجنوب⁽¹⁾.

ولكن من ناحية أخرى سيطرة البرتغاليين تلك كانت مؤقتة، إذ سرعان ما دخلوا في المضاربة مع قوى أوروبية أخرى: هولندا، إنكلترا وفرنسا. فقد تميز القرن السادس عشر وإلى حد بعيد وعلى الصعيد العالمي بالصراع من أجل السيطرة على الاقتصاد العالمي الجديد. بدا الصراع صراع دول صغيرة أول الأمر (البرتغال، ثم هولندا وإنكلترا)، وكان مصدر القوة تقنياً واقتصادياً، من يمتلك أفضل البواخر، أفضل الأسلحة وأفضل الخدمات الاقتصادية. ثم إنها كانت بلداناً صغيرة ولكنها امتلكت قوة عسكرية بحرية، كانت على الأطراف لكنها وجدت نفسها بعد ذلك في قلب الطرق التجارية العالمية⁽²⁾.

أن نشأة هذه الشبكة العالمية للتجارة عبر سلسلة الاستكشافات البحرية، وما تبعها من حركة بحرية تجارية واستعمارية في الوقت ذاته عبر المحيط الهندي والمحيط الأطلسي خصوصاً، إنما تمثل في حقيقة الأمر مرحلة تاريخية مهمة على تواصل شعوب العالم بعضها مع البعض الآخر، بعد أن كانت تعيش في عزلة جغرافية/اقتصادية طويلة الأمد هذا

(1) د. جيرار ليكلرك، المصدر السابق نفسه، ص95.

(2) المصدر السابق نفسه، ص95-96.

من جهة، ومن جهة أخرى فإن عملية التواصل تلك دفعت القوى المتنافسة فيما بينها لتطوير قواها الداخلية لمواجهة تسارع نشوء القوى الجديدة، وهذا الأمر أفضى بطبيعة الحال إلى أن تكون التجارة العالمية تلك متكئة أو مستندة على قوة بحرية/عسكرية هائلة كيما تهيمن وتدير في الوقت ذاته آليات التجارة العالمية عبر التحكم في الحركة الملاحية البحرية.

ولكن أليست هذه التجارة العالمية والتنافس العسكري حولها تمثل البدايات الحقيقية لظاهرة العولمة؟، ما دامت أن القوى المتنافسة تلك تسعى جاهدة لأن تغدو هي مركز العالم اقتصادياً، وبالتالي سياسياً وثقافياً هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أليس تسابق وتنافس هذه القوى العالمية آنذاك فيما بينها للاستيلاء على جغرافيات (الأخر) واستدماج (اقتصادياتها وثقافتاتها) ضمن الأنساق الاجتماعية الخاصة بذواتها هما أرز أو أعلى تعبير عن ممارسات العولمة وبشتى أنواعها.

وهذه التحولات والتداعيات هي المسؤولة حسب تصورات ماركس عن الرأسمالية (الناشئة)، وهي باعتقادنا التعبير الحقيقي عن العولمة التي تحدثنا عنها آنفاً، إذ إن العولمة هي المعطى الرئيس لبدايات الرأسمالية، والتي ترتبط بهذا المناخ الجديد للتجارة العالمية المرتكزة في الأصل على اكتشاف الطرق البحرية الجديدة واكتشاف جغرافيات الآخر؛ وفي هذه المجريات كلها قال ماركس: فالتدفق السريع لرأس المال النابع من هذه التجارة المتعاضمة، مضافاً إلى فيض المعادن الثمينة الآتي إلى البلاد في أعقاب اكتشاف الذهب والفضة في أمريكا، يخترق الترتيبات الاجتماعية والاقتصادية القائمة في إنجلترا. صناعيون جدد تترسخ أقدامهم في الموانئ البحرية، كما في مراكز الجزر البعيدة عن تحكم المدن التعاونية الأقدم وتنظيماتها النقابية، تشهد الأولى الموانئ البحرية ومراكز الجزر - نمواً سريعاً رغم قيام المدن التعاونية بخوض صراع مرير ضد هذه الحاضنات الصناعية الجديدة. وهكذا فإن

الرأسمالية الحديثة تبدأ بعيداً عن مراكز التصنيع الأقدم، على أساس التجارة البحرية والبرية ذات النطاق الواسع⁽¹⁾.

وهذه التجارة المتعاضمة آنذاك في أغلب الدول الأوروبية إنما كانت تعكس في حقيقة الأمر المرحلة الماركنتيلية التي ستتجلى بوضوح أعمق من خلال الفكر الاقتصادي الذي تتبناه، والذي يرمي إلى تحقيق عملية التوازن الاقتصادي من خلال إحداث عملية التكامل بين الدولة والقوى الاقتصادية، على قاعدة كون تطور التجارة والصناعة هما هدف التجار والحرفيين ووسيلة الدولة، ووفرة المال والرجال هما هدف الدولة ووسيلة لتطوير التجارة والصناعة، وهذا ما جعل الماركنتيليين يندفعون نحو الخارج (الآخر) لكونه يؤمن أسواقاً خارجية وثروات نقدية لحركة الجسم الاقتصادي والسياسي في الوقت ذاته⁽²⁾.

ولقد ظهر التفاعل المستمر بين تطور الإنتاج والسوق العالمية منذ المراحل الأولى من ظهور الرأسمالية، وكان هو الدور الحاسم في هذا التفاعل للصناعة الرأسمالية. ففي القرن السادس عشر وجزئياً في القرن السابع عشر ساهم التوسع المفاجئ للتجارة وظهور سوق عالمية جديدة في سقوط الأسلوب القديم للإنتاج ونشأة الإنتاج الرأسمالي. فالسوق العالمية نفسها كانت تشكل أساساً لأسلوب الإنتاج الجديد، ومن جانب آخر فإن المنطق الداخلي لهذا الأسلوب في أن ينتج على نطاق أوسع باضطراد كان يعمل على أن يوسع السوق العالمية باستمرار، حيث إن التجارة هنا لم تكن هي التي تحدث الثورة في الصناعة وإنما الصناعة هي التي غدت تحدث الثورة بانتظام في التجارة، ومن هنا ننظر إلى السوق الرأسمالية العالمية كجزء من عملية أوسع هي التحول التدريجي للرأسمالية إلى نظام كوني⁽³⁾.

(1) أنتوني غيدنز، الرأسمالية والنظرية الاجتماعية الحديثة، مصدر سابق، ص 76.

(2) ينظر : د. حسن الضيقة، الظاهرة الرأسمالية، مصدر سابق، ص 21-22.

(3) د. فؤاد مرسي، الرأسمالية تجدد نفسها، مصدر سابق، ص 105-106.

الفصل الرابع

الاقتصاد الرأسمالي

الغرب بين الثورة الصناعية

والحركة الاستعمارية

يشيع اتفاق بين المؤرخين على أن الفترة التي تبدأ من عام 1688م تقريباً حتى انتهاء الحروب النابليونية (1815م)، كانت العصر الذهبي لضياح الأراضي الكبرى في إنجلترا. ففي أجزاء مهمة من البلاد، اتسعت الضياح على حساب طبقة صغار الملاك، والأهم من ذلك أن هذا الاتساع كان على حساب الفلاحين جراء حركة التسييج⁽¹⁾، والتي أوضحناها سابقاً، والتي مثلت وحسب تصورات بارينجتون مور بصفتها المرحلة المهمة المسؤولة عن تشكيل قاعدة الرأسمالية الحديثة عن طريق الزراعة، وبالتالي هي التي عجلت في القضاء على أجزاء كبيرة من المجتمع الفلاحي الإنجليزي، حيث أصبحت الضيعة الكبيرة تدار إلى حد كبير بناء على المبادئ التجارية⁽²⁾.

تلك المبادئ التجارية الداخلية كان لها قرين آخر أكثر اتساعاً منها على المستوى العالمي، مثل في واقع الأمر هو وعملية الاستغلال الاستعماري لـ(الآخر) القواعد الرئيسة للاقتصاد الرأسمالي، وعلى حد قول المفكر إريك هوبزباوم: ولا يسع المراقب المعاصر إلا أن يدهش إزاء التوسع الكبير في الحركة التجارية التي ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالاستغلال الاستعماري. فقد امتدت حول الأرض شبكة من الطرق التجارية البحرية، وتعاضم حجمها واتسعت قدراتها بسرعة، وراحت تنقل الأرباح إلى الجماعات التجارية في أوروبا شمال الأطلسي، واستخدم هؤلاء التجار السطوة الكولونيالية للسطو على أهل جزر الهند

(1) بارينجتون مور، الأصول الاجتماعية للدكتاتورية والديمقراطية، مصدر سابق، ص50.

(2) ينظر : المصدر السابق، ص 51 53.

الشرقية ونهب ما لديهم من السلع وتصديرها إلى أوروبا، وأفريقيا حيث تستعمل هي والبضائع الأوروبية الأخرى لابتغاء العبيد للعمل في شبكات المزارع الآخذة في التوسع السريع في الأمريكتين⁽¹⁾.

وعلى العموم، فإن الأنشطة التجارية والصناعية آنذاك، وعلى اختلاف مراتبها، شهدت ازدهاراً مشهوداً، وكانت بريطانيا، وهي التي حققت النجاح الأكبر بين الدول الأوروبية في القرن الثامن عشر، تدبّر بنفوذها لتقدمها الاقتصادي. وبحلول الثمانينيات من ذلك القرن، كانت جميع الحكومات المتعقلة تعمل في سياساتها الأوروبية على تشجيع النمو الاقتصادي، ولإسيما التنمية الصناعية، وإن بدرجات متفاوتة من النجاح⁽²⁾. ولكن هذه التحولات الاقتصادية الواسعة لم يكن لها أن تأخذ حيزها وتأثيرها الفعلي على سائر العلاقات الاجتماعية داخل المجتمع الأوروبي، في ظل وجود العلاقات الإقطاعية المدعومة بشكل مباشر من الأنظمة السياسية الحاكمة (الملكية).

وبالتالي إن ما ألغى العلاقات الزراعية الإقطاعية بالفعل باعتقاد (هوبزباوم) وفي جميع أنحاء أوروبا الغربية والوسطى كان الثورة الفرنسية (1789م)، عن طريق الفعل المباشر أو رد الفعل أو الاقتداء، ثم ثورة العام 1848م في إنجلترا التي حدثت من سلطات الملك⁽³⁾.

لكن أوروبا رغم كل هذه التحولات آنفة الذكر لم يكن لها إمكانية الانتقال من الرأسمالية التقليدية (التي تحكمت بالتجارة والموارد المالية الدولية منذ بداية القرن السادس عشر وما سبقه، والتي كان على رأسها الأوليغاركيون البرجوازيون، ومن ضمنهم النبلاء المتنفذون في

(1) إريك هوبزباوم، عصر الثورة/أوروبا (1789-1848)، ت: د. فايز الصياغ، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2007م، ص63-64.
(2) إريك هوبزباوم، المصدر السابق نفسه، ص66.
(3) ينظر: المصدر السابق نفسه، ص71.

الرأسمالية، أو قادة الحرب وأمراء الدول القومية الحديثة، مثل الأمراء الذين أطلقوا حملة الاكتشافات البحرية، والاستغلال الاحتكاري للمناطق المحتلة⁽¹⁾، إلى عصر رأسمالية الشركات الصناعية أو المالية العملاقة والتي تكونت منذ نهاية القرن الثامن عشر إثر قيام الثورة الصناعية، من دون وجود أرضية فكرية/اقتصادية تعكس العقل الاقتصادي الغربي الجديد؛ ولقد مثل هذه الأرضية الفكرية التي أطلق عليها (المدرسة الاقتصادية الليبرالية) مجموعة من المفكرين كان أبرزهم آدم سميث (1723-1790م).

يمثل كتاب ثروة الأمم (Wealth of Nations) الذي نشر عام 1776م المرجع الرئيس لأبرز وأهم أطروحات آدم سميث أن تعاليمه في هذا الكتاب شهيرة بدفاعه عن مشروع حر بأسلوب رحب وبسيط : وهو أن رفاهية الأمة لا يمكن أن تتفصل عن ثروتها التي يتصورها بالأسلوب الحديث بصفاتها الناتج القومي السنوي.

غير أن الناتج السنوي هو مجموع المنتجات السنوية للسكان (الأفراد)؛ إن لكل ساكن مصلحة خالدة في زيادة إنتاجه الخاص، ويفعل كل شيء ممكن لكي يحقق ذلك، إذا ترك حراً، ومن ثم يجب أن يقبل الجميع هذه الحرية، وهم يزيدون الإنتاج المتراكم معاً، ويراقب كل شخص الآخر عن طريق سلطة المنافسة، إن هجومه الشهير على الرأسمالية التجارية - أعنى مذهب التفضيل المفسد لمصلحة التاجر - هو جزء من حجته التي تذهب إلى أن المصلحة العامة لا يخدمها تنشيط المشروعات بقوانين مختلفة، وإنما يخدمها السماح للطبيعة، بصورة آلية، بأن تحول المصلحة الذاتية الفردية إلى خير الجميع⁽²⁾.

(1) ينظر : أدريانو بينايون، العولمة نقيض التنمية، مصدر سابق، ص133.

(2) ليوشتراوس، جوزيف كروبيسي، تاريخ الفلسفة السياسية، مصدر سابق، ص258.

وبعبارة أخرى كانت الحجة الاجتماعية لاقتصاد آدم سميث السياسي تتسم بالأناقة والنزعة التنظيمية، فصحيح أن البشر يتألفون أساساً من أفراد يتمتعون بالسيادة، وبكيان نفسي يسعى إلى تحقيق المصلحة الذاتية في بيئة ينافس فيها الواحد الآخر، غير أنه يمكننا أن نبين أن هذه الأنشطة، عندما يسمح لها بالانطلاق من عقالها دونما ضابط أو رابط، فإنها لن تكتفي بخلق نظام اجتماعي «طبيعي» (يتميز عن النظم المصطنعة التي فرضتها المصالح الذاتية الإرسطائية، أو النزعة الظلامية، أو التطفل الجاهل)، بل ستؤدي أيضاً إلى نمو «ثروة الأمم» بأسرع وقت ممكن، أي أنها ستجد الرخاء والرفاه، ومن ثم السعادة لجميع الناس. والأساس الذي يقوم عليه هذا النظام الطبيعي هو التقسيم الاجتماعي للعمل⁽¹⁾.

وبحسب سميث، يحتاج تقسيم العمل وزيادة الإنتاج وتنمية الثروة إلى:

أولاً: أسواق واسعة يمكن من خلالها تصريف الإنتاج الناجم عن عملية تقسيم العمل.

ثانياً: حكومة تحمي الأشخاص ورؤوس أموالهم ليطمئنوا على مشاريعهم وأموالهم.

ثالثاً: نظم مالي تكون فيه الضرائب عادلة ومعتدلة، فلا ترهق أصحاب العمل وتعيق توسيع مشاريعهم واستثماراتهم.

رابعاً: تأمين البنية التحتية والقوانين الوضعية لضمان وفرة رؤوس الأموال الضرورية لبناء المشاريع وتجهيزها بالمعدات والأدوات، بالإضافة إلى تأمين متطلبات العمال وأجورهم خلال المدة التي تستغرقها مرحلة الإنتاج ومن ثم توزيعها وبيعها في الأسواق⁽²⁾.

(1) إريك هوبزباوم، المصدر السابق نفسه، ص 439.

(2) كامل وزنه، آدم سميث/قراءة في اقتصاد السوق، معهد الدراسات الإستراتيجية، بغداد، ط 1، 2007م، ص 19-20.

إن ما تقدم آنفاً يمثل جوهر أطروحات سميث الاقتصادية أو بعبارة أخرى إنما يمثل القاعدة الرئيسة التي يتحرك بموجبها وحسب رأيه الاقتصاد الرأسمالي، والذي ينطلق أساساً من الفكرة التي تأثر بها رواد المدرسة الاقتصادية الليبرالية والممثلة بفكرة (النظام الطبيعي) وشموله وأبديته. ومن دون الدخول إلى تفاصيل أخرى والتي نحيل القارئ الكريم إليها في كتابه «ثروة الأمم»، فإننا ومع ذلك نجد علينا التزاماً بالإشارة هنا إلى أن مفكري هذه المدرسة لاسيما سميث وديفيد ريكاردو (1772-1823م) حاولوا جامهدين وضع نموذج فكري عقلائي للدولة - الإمبراطورية ونموذجها بريطانيا، وذلك من خلال ترسيخ وتثبيت اقتصاديات قطاعي الزراعة والصناعة، وذلك بصفتها القوة الاقتصادية الكبرى التي يعول عليها في دفع النظام الرأسمالي أشواطاً متقدمة.

ولكن من الواضح أن هذه المدرسة تؤكد على أهمية الاقتصاد الصناعي وبشكل أوسع، فلقد لاحظ سميث أن الأمم الأوفر حظاً في الثراء تتفوق على جاراتها في الصناعة لا في الزراعة، لأن الإنتاج الزراعي لا يختلف في حجمه أو نوعيته بين الدولة الفقيرة والغنية⁽¹⁾. وفي هذا المجال نجد تأكيداً على أهمية أن يحاول كل فرد توظيف رأس ماله في تدعيم الصناعة المحلية بقدر المستطاع. وأن يوجه هذه الصناعة التي يكون إنتاجها ذا قيمة عظيمة؛ لأنه في النهاية سيعمل على جعل الإيراد السنوي للمجتمع كبيراً بقدر المستطاع⁽²⁾.

اندلاع الثورة الصناعية:

يتساءل المفكر إريك هوبزباوم، ترى ماذا تعني عبارة «اندلعت الثورة الصناعية»؟ إنها تعني لديه: أنه في وقت ما من ثمانينيات القرن الثامن عشر، سقطت للمرة الأولى في التاريخ الإنساني الأغلال التي كانت تكبل

(1) المصدر السابق نفسه، ص18.

(2) ينظر: ليونستراوس، جوزيف كروبسي، مصدر سابق، ص258.

القوة الإنتاجية للمجتمعات البشرية التي أصبحت قادرة منذئذ على مضاعفة الناس، والبضائع، والخدمات، على نحو مستمر سريع، وحتى الوقت الحاضر، لا حدود له. وذلك ما يعرف فنياً في أوساط علماء الاقتصاد بـ«الانطلاق في نمو مستدام ذاتياً»؛ إذ لم يستطع أي مجتمع سابق أن يخترق السقف الذي فرضته على الإنتاج بنية اجتماعية قبل - صناعية، وعلوم وتقانة قاصرة، وما يتبع ذلك من التوقف الدوري والمجاعة والموت⁽¹⁾.

ويرى هوبزباوم أن هذا الحدث ربما كان الأهم في التاريخ العالمي منذ اكتشاف الزراعة ونشوء المدن، وقد تولت بريطانيا دور المبادرة في هذا المجال؛ على الرغم من تطور بعض البلاد الأوروبية الأخرى في كافة المجالات التقنية أو العلوم الطبيعية كما هو حال الفرنسيين والألمان، إضافة إلى امتلاك كثير من البلدان الأوروبية الكثير من المفكرين الاقتصاديين الذين يظاهون آدم سميث وديفيد ريكارد وسواهم من مفكري (المدرسة الاقتصادية الليبرالية)، ثم أن الإنجليز لم يحتاجوا إلى إدخال تعديلات فكرية وثقافية كثيرة لإحداث الثورة الصناعية، فلقد كانت مخترعاتها التقنية في منتهى التواضع، (ولم تتجاوز نطاق الحرفيين الأذكى الذين كانوا يجرون التجارب في مشاغلهم، أو القدرات البناء لدى النجارين، وصانعي الطواحين، والقفالين : المكوك الطائر، ودولاب الغزل، والمغزل الآلي)؛ وحتى أكثر آلاتها تقدماً من الوجهة العلمية، وهذا المحرك البخاري الدوراني الذي اخترعه جيمس وات (1784م)، لم يكن يتطلب إلا جانباً من الفيزياء التي كانت معروفة آنذاك⁽²⁾.

بيد أن الظروف المناسبة كانت آنذاك واضحة جلية في بريطانيا التي قام فيها الشعب قبل قرن من الزمان (زمان الثورة الصناعية)، بمحاكمة

(1) إريك هوبزباوم، عصر الثورة، مصدر سابق، ص 79-80.

(2) ينظر : المصدر السابق، ص 81 84.

الملك وإعدامه، وتم فيها الإقرار بأن تحقيق الربح والنفع الخاص والتنمية الاقتصادية هو الهدف الأسمى لسياسة الحكومة، ثم إن الحل البريطاني الثوري الفريد قد أنهى، لأسباب عملية، المشكلة الزراعية؛ إذ إن حفنة من ملاك الأراضي ذوي العقلية التجارية كانوا قد استحوذوا على الأرض التي كان يحرقها المزارعون المستأجرون باستخدام من لا أرض لهم أو صغار الملاك، أما البقية الباقية من الاقتصاد الجماعي القديم في القرى، فقد اكتسحتها قوانين الإغلاق (1760-1830م) والمعاملات الخاصة⁽¹⁾.

ولقد كان القطن هو الصناعة الأولى التي ثورت، ومن الصعب أن نتخيل قطاعاً آخر دفع جمهرة المبادرين بالمشروعات التجارية في القطاع الخاص إلى الثورة. كان القطن حتى وقت متأخر هو الثلاثينيات من القرن الثامن عشر، الصناعة البريطانية الوحيدة التي ساد فيها استخدام المصنع أو «المعمل» (وقد اشتق الاسم من المنشآت ما قبل الصناعية الواسعة الانتشار التي كانت تقوم بعملياتها عن طريق تشغيل الآلات الثقيلة بالطاقة)؛ وبدأ ذلك أول الأمر (1780-1815م) أساساً في مجال الغزل والتمشيط وعدد قليل من عمليات المساندة، ثم أخذ بالتزايد المستمر في مجال النسيج بعد العام 1815م⁽²⁾.

وحتى الستينيات من القرن الثامن عشر، كانت «المعامل» التي شملها قانون المصانع الجديد تعتبر بصورة حصرية مصانع للنسيج، ومعامل للقطن في أغلب الأحيان، وكان إنتاج المعامل في فروع النسيج يتميز بالبطء قبل أربعينيات ذلك القرن، بل إنه لا يكاد يذكر في مراكز التصنيع الأخرى. فالمحرك البخاري الذي كان قد استخدم في صناعات

(1) إريك هوبزباوم، المصدر السابق نفسه، ص 84-85. وينظر كذلك : بارينجتون مور، المصدر السابق نفسه، ص 42-56.

(2) إريك هوبزباوم، مصدر سابق، ص 95.

عديدة أخرى بحلول عام 1815م، لم يستعمل بصورة ملموسة إلا في المناجم التي كان لها دور الريادة في تشغيله، وعام 1830م، كان مصطلحاً «الصناعة» و«المصنع»، بالمعنى الحديث للكلمة، يستخدمان حصراً للدلالة على مناطق القطن في المملكة المتحدة⁽¹⁾.

ولقد كانت بريطانيا تأخذ احتياجاتها من «صبغ النيلة» من أمريكا، لما كانت الأخيرة مستعمرة خاضعة لها، ولكن بعد الثورة الأمريكية المطالبة بالاستقلال، تغيرت معادلات السوق العالمي برمته. إذ إن تجارة صبغ النيلة في كارولينا الجنوبية وجورجيا كانت من بين الكوارث الاقتصادية الكبرى التي جاءت بها الثورة الأمريكية، ذلك أن الأند يديغوفيرا تينكتوريا *Indigofera Tinctoria* وهو نبات أصله آسيا الوسطى وشمال أفريقيا، يعطي صبغاً أزرق اللون وكان عليه طلب كبير في صناعة الملابس في بريطانيا، ولكن وبحكم العلاقات الإمبريالية، فقد فتح السوق البريطاني - وكان أكبر أسواق العالم - أمام الواردات من جورجيا وكارولينا الجنوبية. وفي نهاية العصر الاستيطاني كانت صناعة النيلة توظف 10 في المائة من الرقيق في المستعمرات الأمريكية. وتحولت بريطانيا بعد استقلال أمريكا إلى الهند لتأمين وارداتها من النيلة. ومن دون السوق البريطانية انهارت صناعة النيلة في كارولينا الجنوبية وجورجيا سريعاً⁽²⁾.

وهكذا أصبح ازدهار أقاصي الجنوب *Deepsouth* في اقتصاد ما بعد الحقبة الاستعمارية (الإنجليزية) يتطلب محصولاً رابحاً جديداً. ولقد كان القطن أحد الخيارات المتاحة. ومع أن أهمية القطن بالنسبة للجنوب كانت أمراً معروفاً، فليست أهميته للتطور الرأسمالي ككل معروفة بالقدر نفسه، ففيما بين عامي 1815-1860م كان لتجارة

(1) المصدر السابق نفسه، ص 95.

(2) جون ستيل جوردون، إمبراطورية الثروة، مصدر سابق، ص 100.

القطن تأثير حاسم على معدل النمو في الاقتصاد الأمريكي. وكانت حتى حوالي عام 1830م أكثر أسباب نمو التصنيع حسماً في البلاد⁽¹⁾.

ولقد عادت العلاقات التجارية بين بريطانيا وأمريكا بعد نيل الأخيرة استقلالها، إذ من 1840م وحتى فترة الحرب الأهلية الأمريكية كانت بريطانيا العظمى تسحب من الولايات الجنوبية أربعة أخماس وارداتها من القطن؛ وبحلول عام 1894م كان أربعة وستون بالمئة من محصول القطن يذهب إلى الخارج، وبشكل أساسي إلى إنجلترا⁽²⁾.

ومما ينبغي الإشارة إليه هنا هو أن المجتمع الأمريكي لم يواجه في طريقه نحو الرأسمالية مثلما واجه مجتمع بريطانيا وفرنسا، إذ لم تواجه الولايات المتحدة مشكلة تفكيك المجتمع الزراعي، فمنذ البداية الأولى كانت الزراعة التجارية مهمة، مثلما في مزارع التبغ بفرجينيا، وسرعان ما سادت تلك الزراعة عندما استقرت البلاد، ولم تكن الصراعات بين طبقة ملاك الأراضي الأرستقراطية ما قبل التجارية والملك جزءاً من التاريخ الأمريكي. وفي المجتمع الأمريكي لم توجد في يوم من الأيام طبقة ضخمة من الفلاحين تشبه تلك التي كانت في أوروبا وآسيا⁽³⁾.

الشركات العالمية والعالم الجديد (أمريكا):

ولدت أمريكا من رحم ثورة قامت ضد سوء استخدام سلطة الملوك البريطانيين، وكان قانون الشركة أداة مؤسساتية لسوء الاستخدام المذكور. فقد استخدمت إنكلترا الشركات القانونية للاحتفاظ بالسيطرة على اقتصاد المستعمرات. فعلاوة على شركات مهمة مثل (شركة الهند الشرقية) و(شركة خليج هدسن)، كان العديد من المستعمرات الأمريكية قد سجل باسم شركات. وكانت الشركات في ذلك الزمن مرخصة من

(1) بارينجتون مور، المصدر السابق نفسه، ص154.

(2) ينظر : المصدر السابق، ص154.

(3) ينظر : بارينجتون مور، المصدر السابق نفسه، ص149 .

المملك وتؤدي وظائفها امتداداً لسلطة التاج. وعلى وجه العموم، منحت تلك الشركات سلطات احتكارية على الأراضي والصناعات التي كانت تعد حاسمة بالنسبة لمصالح الدولة الإنكليزية⁽¹⁾.

ولقد كانت دولة الولايات المتحدة الأمريكية الناشئة على جغرافيا الآخر (العالم الجديد) هي ذاتها نتاج تلك الشركات العالمية البريطانية الأصل، والمسماة بالشركات المساهمة. ربما كان أسلوب المشاركة (الشراكة) معروفاً منذ أقدم العصور، لكن الشراكة تنص على تحميل الشريك مسؤولية كل ديون المشروع، وهذا ما كان يعرض المستثمر صاحب رأس المال المحدود إلى الإفلاس مع فشل المشروع. ولم يكن هناك سوى قلة أبدت استعداداً لتحمل هذه المخاطر، وخصوصاً في مشروع لا يمكن وضعه تحت الرقابة المباشرة، ولقد عالجت الشركة المساهمة هذه المشكلة من خلال حصر مسؤولية المستثمر في مقدار أمواله المستثمرة، وبالتالي فقد نقل ذلك بعضاً من المخاطر إلى دائني الشركة، لكنه سمح في الوقت نفسه بتأمين مبالغ هائلة من الاستثمارات الصغيرة. وهكذا مثلت الشركات المساهمة التي جاءت في المرتبة الثانية بعد «الدولة - الأمة» State - nation أهم التطورات التنظيمية لعصر النهضة وساعدت على غرار «الدولة - الأمة» في تحقيق الإنجازات التي صنعت العالم الحديث⁽²⁾.

وفي النصف الثاني من القرن السادس عشر أنشئ كثير من الشركات الإنكليزية المساهمة لتسهيل التجارة في عدد من المناطق⁽³⁾. وفي العام 1606 سمح الملك جيمس الأول بترخيص إنشاء شركة فيرجينيا التي تأسست على

(1) ديفيد سي. كورتن، عندما تحكم الشركات العالم، ت: د. محمد درويش، دار المأمون للترجمة والنشر، بغداد، 2007، ص114.

(2) جون ستيل جوردون، إمبراطورية الثروة، مصدر سابق، ص22-23.

(3) من بين هذه الشركات التي أنشئت: شركة موسكو Moscow Company (العام 1555م)، شركة المشرق Levant Company (العام 1583م) وشركة الهند الشرقية (العام 1600م)، ينظر المصدر السابق نفسه، ص23.

أيدي مجموعة من تجار لندن؛ ولقد كان هاجس (الآخر) حاضراً في نص ميثاق الشركة، وذلك لأنه وبجغرافيته يمثل الغاية الاقتصادية (الثروات) والتمدد الجغرافي (المستوطنات) والغاية الدينية (التنصير).

إذ نص ميثاق الشركة على أن هدفها كان بناء أسطول تجاري لإنجلترا وزيادة عدد البحارة المتمرسين من خلال زيادة حجم تجارتها واكتشاف المعادن الثمينة وتأسيس مستوطنة بروتستانتية في أرض كانت تحت رحمة التهديدات الإسبانية، ومن جملة ذلك إدخال الوثنيين في المسيحية، هذا الهدف الأخير لم يحظ في الواقع بكثير من الاهتمام، وبالتأكيد فإن إنجلترا لم ترسل مبشرين على الإطلاق، على العكس من ذلك، كانت نيتها واضحة بتنصير الهنود من خلال مجموعة من عمليات التلقين الاقتصادي «بغية توطين رعايانا وتفريق شمل السكان الأصليين في سبيل الله العظيم، ونشر الدين المسيحي، وتطوير عمل وريع المزارع في ذلك البلد عموماً، وتحقيق مصلحتنا الخاصة وضمان أرباحنا»⁽¹⁾.

لقد استقطبت شركة فيرجينيا (Virginia Company) ضحايا حركة التسييج التي تحدثنا عنهم سابقاً، إضافة إلى عمال الملابس العاطلين عن العمل، إلى جانب المغامرين من الأشراف الذين كانوا في الأغلب أصغر أبناء العائلات الإقطاعية. ففي ديسمبر 1606م غادرت إنجلترا ثلاث سفن وبلغن خليج تينزابيك في 26 أبريل 1607م وبعد أن أبحرت بضعة من ستين ميلاً باتجاه منبع نهر جيمس لإخفاء وجودها عن الإسبان، رست السفن الثلاث في الثالث عشر من مايو في موقع حمل أيضاً اسم النهر جيمس تاون Jamestown نسبة إلى ملك إنجلترا؛ وبذلك تأسست أول منطقة أمريكية (فيرجينيا) والتي عدت أول ولاية أمريكية بعدما كانت أول مستعمرة إنجليزية⁽²⁾.

(1) المصدر السابق نفسه، ص23.

(2) ينظر: جون ستيل جوردن، المصدر السابق نفسه، ص24 27.

وبمرور الوقت بدأت شركة فرجينيا تنقل المزيد من المهاجرين إلى هذه المستعمرة الجديدة، التي كان هاجس سكانها البحث عن الذهب الذي جرحهم فيما بعد إلى الاستيطان الدائم هناك. ولقد تنبه الهنود الحمر من سكان أمريكا الأصليين إلى أن المهاجرين البيض الذين نزلوا على شواطئهم لم يعد يكفيهم ما امتدت إليه أيديهم من ذهب وجواهر (وما خطفوه من بنات ونساء!)؛ وإنما هم الآن ينصبون خياماً على الأرض، ويدقون ويحفرون وقد جاؤوا بالآت وبذور - وإذا فهي إقامة وليست زيارة⁽¹⁾.

وكيما يطيب للذات البيضاء المهاجرة العيش على الجغرافيا الجديدة من دون شريك (الآخر) يقاسمهم الموارد ويتمنع تجاه سياساتهم المتنوعة؛ جاءت الفكرة الرئيسة (ضرورة الإبادة لهؤلاء الوثنيين)، فلقد ورد في أحد تقارير عام 1624م المرفوعة من شركة فرجينيا إلى المساهمين بها في لندن: (إن الخلاص من الهنود الحمر أرخص بكثير من أية محاولة لتمدينهم. فهم همج برابرة، عراة متفرقون جماعات في مواطن مختلفة، وهذا يجعل تمدينهم صعباً، لكن النصر عليهم سهل. وإذا كانت محاولة تمدينهم سوف تأخذ وقتاً طويلاً، فإن إبادتهم تختصره، ووسائلنا إلى النصر عليهم كثيرة : بالقوة، بالمفاجأة، بالتجويع، بحرق المحاصيل، بتدمير القوارب والبيوت، بتمزيق شباك الصيد، وفي المرحلة الأخيرة المطاردة بالجياد والكلاب المدربة التي تخيفهم لأنها تنهش جسداهم العاري)⁽²⁾.

وعلى العموم ظلت عمليات الإبادة مستمرة للهنود الحمر حتى أواخر القرن التاسع عشر، بل استمر بعضها حتى بدايات القرن العشرين، رغم

(1) محمد حسنين هيكل، الزمن الأمريكي/من نيويورك إلى كابول، الشركة المصرية للنشر العربي والدولي، القاهرة، ط4، يونيو، 2003م، ص47.

(2) المصدر السابق نفسه، ص47.

محاولات بعض قبائل الهنود الحمر التصدي لمشاريع الرجل الأبيض عبر حروب طويلة خاضوها معه؛ وهذا ما فعلته قبيلتا الأباتشي (1871-1886م) والياكوي (المكسيكية) (1875-1926م) وكذلك قبيلة سيووه (Sioux) التي حاربت وانتصرت في بعض المعارك إلا أن المجازر الأمريكية قضت عليها⁽¹⁾.

ولقد مثلت شركة فرجينيا وسائر الشركات التي توسعت أو أنشئت فيما بعد في ظل الثورة الصناعية المتسارعة في تقدمها الصناعي (الآليات) وتحولاتها الاجتماعية (مجتمع العمال/ والمستثمرين)، مثلت عصر الرأسمالية الجديد الذي يتجاوز عصر الرأسمالية التجارية /التقليدية ليقوم على تركتها الكبيرة بعد توسيعها بطبيعة الحال، عصر الرأسمالية الصناعية لاسيما عبر الشركات متعددة الجنسيات أو عبر الوطنية، والتي مارست أنشطتها الاقتصادية خارج بلدانها (المراكز) واتجهت نحو البلدان المستعمرة آنذاك في آسيا وأفريقيا (الأطراف)، إضافة إلى مستعمراتها في الأمريكتين.

ويشتمل هذا النوع من الرأسمالية على:

- (1) كبار الصناعيين، ممثلي التركيز الاقتصادي الموصوف.
 - (2) كبار المصرفيين المساهمين في الشركات الصناعية التي يقودونها في أحيان كثيرة، والمتحكمين كذلك بالموارد المالية العامة، وخاصة أموال الحروب بصورة كبيرة، ابتداءً من الحروب النابوليونية⁽²⁾.
- وكانت هذه الشركات لاسيما الإنجليزية والالمانية والأمريكية (بعد نيل الاستقلال) منها تعتمد على بلدانها بوصفها بلاد «المراكز

(1) ينظر : إريك هوبزباوم، عصر رأس المال (1848-1875م)، ت: د. فايز الصياغ، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2008م، ص254-255.

(2) ادريانو بينايون، العولمة نقيض التنمية، مصدر سابق، ص133.

الاقتصادية». ولكن كان النفوذ التجاري والمالي الأكبر لهذه الشركات، كانت تمثل الشركات الإنجليزية؛ وذلك بسبب النفوذ البريطاني الذي ارتكز على التوسع التجاري والمالي والعالمي مستفيداً من دعم القوة البحرية، التجارية منها والحربية، مما أكسبه بعداً إضافياً بعد الثورة الصناعية. وعموماً كانت تلك المراكز تسيطر دائماً على:

1. تجارة الجملة والتجارة الخارجية والنشاطات التقليدية للشركات الكبيرة.

2. الموارد المالية وخاصة تلك المستخدمة في دعم هذه الأنماط التجارية، لأن هذه الأنشطة كانت خاضعة دائماً لسيطرة المراكز⁽¹⁾.

ولقد مارست هذه المراكز لاسيما بريطانيا على وجه الخصوص عملية التهميش (والذي هو عبارة عن عملية (خلخلة) أو إعادة تنظيم اقتصاد البلد الطرف وفق مصلحة البلد المركز) عن طريقين، هما:

1. الطريق التقليدي، بوساطة التجارة الخارجية، وفيه تحدد المنطقة الهدف بالتخصص في تصدير المواد الأولية، حسب ثرواتها ومناخها وأرضها حسب طلب المركز، الذي إما أن يستخدمها وإما أن يعيد تصديرها بحيث يحقق أرباحاً تجارية من ورائها.

2. التهميش من الداخل، الناجم عن الاستثمارات الأجنبية المباشرة. وهذا الطريق تكون آثاره أكثر عمقاً من الطريق الأول، لاسيما في حالة استيلاء الشركات عبر الوطنية التابعة للمراكز على النظام الإنتاجي في البلد الطرف؛ والذي تحقق فعلاً بعد الحركة الاستعمارية⁽²⁾.

ولقد شرعت هذه المراكز قوانين اقتصادية متنوعة أتاحت لها ممارساتها الاحتكارية بنطاق أوسع مع مستعمراتها (الأطراف)؛ فالبرلمان

(1) ينظر: المصدر السابق، ص25-26.

(2) ينظر: المصدر السابق نفسه، ص209.

الإنكليزي (مثلاً لا حصراً) في القرنين السابع عشر والثامن عشر، والذي يتألف من ملاك الأراضي الأثرياء والتجار وأرباب المصانع، قد أقر قوانين كثيرة هدفها حماية هذه المصالح الاحتكارية وتوسيعها. ومن هذه القوانين، كان أحدها يتطلب مثلاً مرور كل البضائع المستوردة من آسيا وأوروبا إلى المستعمرات بإنكلترا أولاً. وعلى نحو متشابه، كان لابد لبعض المنتجات المصدرة من المستعمرات أن تمر أولاً بإنكلترا، وكانت قوانين الملاحة تتطلب من البضائع المبحرة من المستعمرات أو إليها أن تشحن على متن سفن إنكليزية أو تابعة لمستعمراتها ويديرها طاقم إنكليزي أو من مستعمرات إنكلترا، إضافة إلى ذلك. فإن المستعمرين كانوا على الرغم من امتلاكهم المواد الخام الضرورية ممنوعاً عليهم إنتاج قبعاتهم وقلنسوتهم ومواد (الحديد والصوف)، وكانت المواد الخام تشحن من المستعمرات إلى إنكلترا بهدف تصنيعها، وكانت المواد المصنعة تعاد ثانية إلى المستعمرات⁽¹⁾.

وفي الحقيقة إن عملية انتقال الرأسمالية من إطارها الإقليمي/الأوروبي/الغربي إلى إطارها العالمي، إنما جاء في ظل الثورة الصناعية وشركاتها العملاقة العابرة للقارات؛ والتي أوجدت بشكل أو بآخر نظاماً عالمياً واحداً تحكم منذ تلك المرحلة (وإلى الآن) بعلاقة الغرب (الصناعي) مع العالم (المستعمر سابقاً النامي حالياً) من خلال المرتكز الجغرافي/الاقتصادي/السياسي (المركز والأطراف)؛ ولقد مثلت هذه التحولات وصيغ العلاقات العالمية الشكل الأولي لظاهرة العولمة⁽²⁾، ولاسيما من خلال الذراع الأقدم للثورة الصناعية وتداعياتها عبر تولد (العولمة الاقتصادية) ذلك الذراع والآلية الممثلة بالشركات العالمية التي تعد إلى الآن أحد العناصر الجوهرية في صلب عملية العولمة

(1) ينظر : ديفيد سي. كورتن، عندما تحكم الشركات العالم، مصدر سابق، ص 114-115.

(2) ينظر : د. عبد الخالق عبد الله، العولمة : جذورها وفروعها وكيفية التعامل معها، مصدر سابق، ص 57-58.

الاقتصادية لكونها تسيطر على الأسواق العالمية من خلال سلعتها وخدماتها⁽¹⁾ اللتين صنعتا معاً ثقافة/استهلاكية جديدة إلى جانب الصيغ التقليدية القائمة، تلك المعالم التي لا تنفك تصدر عن (مركز عالمي) ثابت مهمين على آليات الانتشار الثقافي/الاقتصادي، المحكوم بالأصل ضمن إطار قواعد وتشريعات الشركات العالمية.

الغرب بين استهلاك الطاقة وإنتاج الآخر:

إن ثمار أو نتائج الثورة الصناعية والثورة الفرنسية تجلى بوضوح أعمق في تداعياتهما على القرن التاسع عشر وفي شتى المجالات، وعلى وجه الخصوص الاقتصادية منها التي مثلت النتيجة والسبب في الوقت ذاته، بوصفه المجال المسؤول الرئيس عن الثورة الصناعية، وحتى الثورة الفرنسية على حد مراجعات بارينجتون مور⁽²⁾.

ومعالجة تحليلية أعمق وجد إريك هوبزباوم أن الإنجاز الأكبر للثورتين الصناعية والفرنسية تمثل في أنهما قد مهدتا السبل أمام المواهب، أو على الأقل أمام ذوي الطاقة والدهاء، والمجدين والجشعين على حد سواء. على أن ذلك لم يشمل جميع المسارات المهنية، ولا المراتب العليا في السلم الاجتماعي، ربما باستثناء الولايات الأمريكية، غير أن الفرص كانت متاحة على نحو خارق للعادة، وكان القرن التاسع عشر بعيداً كل البعد عن النماذج التراتبية الساكنة التي كانت سائدة في الماضي⁽³⁾.

إن التطور والتقدم الشامل الحاصل في الغرب وعلى كل المستويات إنما كان قائماً على عنصر الاستهلاك الهائل (للطاقة)، والذي عُدَّ

(1) ينظر : أنتوني جيننز، علم الاجتماع، مصدر سابق، ص 124-125.

(2) ينظر : بارينجتون مور، مصدر سابق، ص 69-74.

(3) إريك هوبزباوم، عصر الثورة، مصدر سابق، ص 356-357.

* فلم يقتصر الاهتمام بالطاقة على العلم وأهل الصناعة فحسب؛ إذ كان يمكن مشاهدة آثار ذلك في الفنون أيضاً، حيث تكمن المفاجأة. فماذا كان يحدث في الأدب أثناء هذه التطورات العلمية الصناعية؟ كانت هنالك موجة من الأدب الرومانسي حوالي عام 1800م. وهنا قد يتساءل المرء: كيف يمكن للشعراء الرومانسيين أن يهتموا بالصناعة؟ إن مفهوم الطبيعة الجديد كناقلة للطاقة قد صدمهم كما لو عصفت بهم عاصفة. وفي الواقع فقد أحب الشعراء كلمة «العاصفة» واعتبروها مرادفة لكلمة «الطاقة» كما في أبيات وجمل مثل «العاصفة والدفع» ونرى ذروة ذلك في قصيدة صامويل تايلور كولريدج «ترنيمة البحار القديم» تتوافق مع عاصفة تحطم ذلك الهدوء المليت وتبعث الحياة من جديد، ولتفاصيل أكثر ينظر: ج. برونوفسكي، ارتقاء الإنسان، مصدر سابق، ص 218-222.

بالنسبة إلى الأنثروبولوجست ليزلي وايت كما بيّنا سابقاً عنصراً مهماً في قياس التطور الشامل للثقافة، وذلك نظراً لاستخدام الطاقة في التنمية التكنولوجية والذي يعتمد أصلاً على معدلات استهلاك الفرد للطاقة الطبيعية، والتي كانت ممثلة آنذاك بالثروات المعدنية المتنوعة والتي كان على رأسها (الفحم) الذي كان مسؤولاً عن تشغيل المحركات البخارية المستخدمة في شتى مناحي الحياة آنذاك.

فمثلاً (لا للحصر) لقد تضاعف في بلجيكا عدد المحركات وزادت طاقتها ثلاثة أضعاف بين العامين 1830 و1838م: من 354 محركاً (بقوة أحد عشر ألف حصان) إلى 712 (بقوة ثلاثين ألف حصان). وما أن حل العام 1850م حتى كان في ذلك البلد الصغير، الذي قطع أشواطاً بعيدة في مجال التصنيع، نحو ألفين وثلاثمائة محرك تبلغ طاقتها ستة وستين ألف حصان، وأصبح ينتج نحو ستة ملايين طن من الفحم (أي بزيادة ثلاثة أضعاف عما كان عليه عام 1830م) ولقد ركبت شركة كروب الألمانية، مثلاً، أول محرك بخاري 1825م، وفتحت أولى الفوهات في مناجم الفحم في إقليم الرور عام 1837م، وشغل أول مصهر بالفحم في مركز الحديد التشكيلي الكبير في فيتكوفيتش عام 1836م، وأقيمت أول طاحونة دوارة لدى شركة فلاك في لومباري عام 1839-1840م⁽¹⁾.

ولكن عملية استهلاك الطاقة تلك، لا تتم بنظر وايت من دون وجود النظم الاجتماعية الثقافية التي تقوم عليها، تلك النظم المكونة برأيه من أجزاء ثلاث: (التقني الاقتصادي) (الاجتماعي) - (الأيديولوجي) وهذه

(1) المصدر سابق، ص 326 327.

الأجزاء الثلاثة إما تمثل عنده (الثقافة) هدفها الرئيس توظيف الطاقة في خدمة الإنسان، وتتولى في الوقت ذاته توفير المناخ الثقافي الملائم للجانب المعاشي (الحياتي العام) وللجانب الأمني (حماية المجتمع) من شتى الأخطار.

ولعل توافر هذه الأجزاء قد تحقق فعلاً آنذاك في المجتمعات الغربية عموماً والمجتمع الإنكليزي على وجه الخصوص، فالثقافة التقنية من قوانين علمية مهدت للاختراعات التي سهلت تطوير الطبيعة آنذاك، قد عكس الجزء التقني الاجتماعي، والدولة القومية التي أنشئت في الغرب (في القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر) وما استتبعها من وجود نظم اجتماعية متنوعة تجلت أعلاها عبر (إنشاء البرلمانات) القائمة على إرادة الشعب قد مثلت الجزء الاجتماعي.

أما الجزء الأيديولوجي فلقد كان ممثلاً آنذاك «بالمدرسة الاقتصادية الليبرالية»، لاسيما في المجتمع الإنكليزي والأمريكي على حد سواء، وكذلك المدارس الاقتصادية الأخرى المبينة والمختلفة عن المدرسة الآنف ذكرها لاسيما المدرسة الألمانية، عموماً هذه الأيديولوجيات مهدت لقيام اقتصاديات غربية تتجاوز الإقليمية عبر إقامة نظام عالمي موحد قام على الاقتصاد الرأسمالي.

وإذا كان وايت عبر عن تداخل هذه الأجزاء بالصيغة الآتية:

طاقة × تقانة ← ثقافة، فإننا نستطيع تحويلها بالصيغة الآتية وحسب طبيعة القرن التاسع عشر خصوصاً:

فحم × محرك بخاري ← نظام رأسمالي شامل (المجتمع الصناعي) (الطاقة البخارية)

وفي هذا المجال نجد أن هوبزباوم يرى أن المقياس الأنسب لقياس التوسع الاقتصادي في القرن التاسع عشر هو عبر حسابه بقوة الطاقة

البخارية، لأن المحرك البخاري كان الشكل النموذجي للطاقة، إضافة إلى الطاقة الناجمة عن منتجات الفحم والحديد⁽¹⁾.

إن التطور الأهم في عمليات استهلاك الطاقة والتي جرت في ظل الثورة الصناعية، يتمثل في اختراع القطار الذي يرجع إليه الفضل في تسريع انتقال الأفراد بين الجغرافيات الشاسعة، وفي تسهيله عملية نقل السلع من أماكن الإنتاج إلى أسواق التصريف (الاستهلاك). لقد كانت القاطرة رمزاً مدهشاً لانتصار الإنسان عبر التقنية؛ إذ كانت بالسنة الدخان الأفغوانية الضخمة المنبعثة منها، تشق طريقها بسرعة الريح عبر البلدان والقارات وتمتد وتنتشر تحتها وعلى جانبيها الأرصفة والمنصات والمعابر والجسور والمحطات التي تشكل مجموعها سلسلة من المباني العامة التي تتضاءل أمام امتدادها الأهرامات، وقنوات المياه الرومانية، وحتى سور الصين العظيم⁽²⁾.

ولقد مدت خطوط السكة الحديدية الأولى في الولايات المتحدة (1827م)، ثم فرنسا (1828-1835م)، وألمانيا وبلجيكا (1835م)، وحتى في روسيا (1837م)؛ ولاشك في أن السبب في (سرعة مد سكك الطاقة الجديدة) هو أن أياً من المخترعات الأخرى لم يكشف للانسان العادي سرعة العصر الجديد وقوته بهذا القدر من الاثارة⁽³⁾.

والواقع أن الكلفة الباهظة للسكة الحديدية كانت، من الوجهة الاقتصادية، ميزتها الرئيسية. ولاشك في أن قدرتها على اختراق أقطار معزولة عن أسواق العالم آنذاك جراء ارتفاع كلفة النقل، والزيادة الكبيرة في السرعة والحجم لنقل الناس والبضائع برأ، ستكتسب أهمية بالغة في المدى البعيد، غير أنها من الناحية الاقتصادية كانت أقل أهمية عام

(1) ينظر: إريك هوبزباوم، عصر رأس المال، مصدر سابق، ص 85.

(2) إريك هوبزباوم، عصر الثورة، مصدر سابق، ص 109.

(3) المصدر السابق نفسه، ص 108.

1848م خارج بريطانيا لقلّة خطوط السكة الحديدية، وذلك لأن مشكلات النقل كانت لأسباب جغرافية، عسيرة الحل في البلدان التي لم تكن لها منافذ بحرية⁽¹⁾.

ومن ناحية أخرى نجد أن السكة الحديدية وبكل متعلقاتها الاقتصادية من حديد وفولاذ وفحم وأيد عاملة شكّل نقلة جديدة في صناعات السلع الرأسمالية تماثل ما حدث في صناعة القطن؛ فخلال العقدين الأولين من عمر السكة الحديدية (1830-1850م) ارتفع إنتاج بريطانيا من الحديد من 680 ألف طن إلى مليونين ومئتين وخمسين ألف طن، أي أنه تزايد ثلاثة أضعاف. كما تضاعف ثلاث مرات إنتاج الفحم من 15 مليون طن إلى 49 مليوناً⁽²⁾؛ ولقد يسرت عمليات تصدير الحديد والآلات اللازمة للسكك الحديدية من بريطانيا عملية تطوير التصنيع في البلدان المستوردة على وجه الخصوص⁽³⁾.

وإذا كانت الشركات المتعددة الجنسيات تمثل وجهاً رئيسياً من أوجه العولمة لاسيما في قطاعها الاقتصادي، فإن تطور وسائل الاتصال - والتواصل بين الشعوب عبر تطور السكك الحديدية وقاطراتها الناقلة للسلع والخدمات والأفراد (أو بعبارة أخرى الناقلة للثقافات بوصفها إحدى أدوات التثاقف والاحتكاك والانتشار الحضاري في الوقت ذاته)، يمثل الوجه الثاني الرئيس في العولمة وبكافة قطاعاتها (الاقتصادية/الثقافية/السياسية)، لأنها ساهمت في ضغط عنصر الزمان والمكان، مما سهل عملية تقلص الحدود الجغرافية ليس داخل حدود أوروبا فحسب، بل شمل ذلك العالم (الآخر) بأسره.

(1) إريك هوبزباوم، عصر الثورة، مصدر سابق، ص109.

(2) ينظر : المصدر السابق نفسه، ص109.

(3) ينظر : إريك هوبزباوم، عصر رأس المال، مصدر سابق، ص84.

إنتاج الآخر :

في ظل هذا التطور الرأسمالي الكبير الذي أوضحناه سابقاً، كان الغرب بحاجة ملحة إلى أن يلقي هذا الجسم أو الكيان الاقتصادي على جغرافيات جديدة لكي يستشعر بتمدده الاقتصادي الذي تجاوز مراكزه كافة. وبالتالي كان يبحث عن هوامش أو أطراف تخفف عنه تخمة أسواقه المحلية ومجتمعه الصناعي الذي ضاق ذرعاً بمستهلاكاته، إضافة إلى أن هذه الأطراف كانت تمتلك ثروات طبيعية هائلة تستطيع من خلالها الذات الغربية ديمومة عصر الطاقة الذي ابتدعته.

وفي عصر الطاقة (القرن التاسع عشر) كانت وجهة المستكشفين هذه المرة وبالدرجة الأولى أفريقيا وأستراليا. إن من نسميهم «مستكشفي» القرن التاسع عشر كانوا، في واقع الأمر، جماعة فرعية من كتلة بشرية كبيرة قامت بكشف النقاب عن كوكب الأرض. لقد كان هؤلاء الذين ذاع صيتهم على قلة عددهم هم الذين سافروا إلى مناطق لم تصل فيها مستويات فاعلية التنمية الاقتصادية والأرباح إلى درجات كافية لتمكين التاجر، ومنقب المعادن، والمساح، وممدد سكة الحديد وخط البرق (الأوروبي) من الحلول محل «المستكشف» آخر المطاف، على صعيد معرفة ما إذا كان المناخ مناسباً للمستوطن الأبيض⁽¹⁾.

ولكن هذه الغايات الاقتصادية الاستعمارية كانت تبررها أيديولوجيا يشيعها مفكرو الأنوار آنذاك، تحت دعوى جوهريّة (تمدين الشعوب المستعمرة)؛ وبعبارة أخرى وعلى حد تعبير تزفيتان تودوروف: ومن الانتقادات التي توجه عادة إلى الأنوار كونها قد وفرت المستندات الأيديولوجية للاستعمار الأوروبي، ويقوم هذا الانتقاد حسب اعتقاده على المنطق التالي: بما أن الأنوار تقرر بوحدة الجنس البشري فهي تقرر

(1) إريك هوبزباوم، عصر رأس المال، مصدر سابق، ص 104 105 .

إذاً بكونية القيم. ولما كانت الدول الأوروبية مقتنعة بأنها تحمل قيماً أرقى من القيم السائدة عند غيرها من الأمم اعتقدت أن من حقها حمل حضارتها إلى الذين هم أقل حظاً منها؛ وكي تضمن نجاحها في أداء هذه المهمة كانت مجبرة على احتلال المناطق التي يقطنها سكان تلك الأمم⁽¹⁾.

بعبارة أخرى إن المركزية الأحادية، السياسية، والثقافية، للمشروع الكولونيالي كانت نتيجة طبيعية لتقاليد العالم الأوروبي الفلسفية، وأنساق التمثيل التي أضفت عليها تلك التقاليد امتيازاً. لقد كان التوسع الإمبراطوري في القرن التاسع عشر، واندفاع الأوروبيين نحو العالم الكائن ما وراء أوروبا وهيمنتهم عليه- وهو ما بدأ في باكورة عصر النهضة- يقوم بطرق معقدة على تلك الافتراضات⁽²⁾.

قد تقنعنا نظرة سطحية على تلك الأفكار قليلاً بأن فكر الأنوار مهد الطريق أمام الحملات الاستعمارية اللاحقة فكوندورسيه مثلاً كان مقتنعاً بأن تنوير جميع البشر مهمة ملقاة على عاتق الأمم المتحضرة إذ يقول : أليس من واجب سكان أوروبا تمدين أو إبادة الأمم المتوحشة التي تحتل مناطق شاسعة من قارتهم ولو دون احتلال⁽³⁾.

والشيء المهم الذي ينبغي لفت الانتباه إليه في هذا المجال، هو أن التنوير قد اعتبر وريثاً للاحتكاك الأوروبي الطويل بالأراضي الغربية والذي سبق أن بدأ مع الرحلة الذاتية لكريستوفر كولمبس عبر الاطلنطي في 1492م؛ وكذلك فقد عد وريثاً للنقاش المطول عن طبيعة «الغريب» والذي دار في أعقاب الرحلة⁽⁴⁾.

(1) تزفيتان تودوروف، روح الأنوار، ت: حافظ قويعة، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2007م، ص34.

(2) بيل اشكروفت وآخرون، الرد بالكتابة، مصدر سابق، ص31-32.

(3) المصدر السابق نفسه.

(4) دوريندا أوترام، التنوير، ت: د. ماجد مورييس إبراهيم، دار الفارابي ومؤسسة محمد آل مكتوم، بيروت، ط1، 2008م، ص199.

فلقد واجه الأوروبيون بعدكولمبس الشعوب الأخرى بخليط معقد من الدوافع والمثاليات، كان الدين من بينها عنصراً قوياً في المستعمرات التي امتلكتها الدول الكاثوليكية مثل إسبانيا والبرتغال وفرنسا، بصفة خاصة، نظر إلى الجهد التبشيري كعنصر أساس يضفي الشرعية على استغلال المنتصر لأراضي وشعوب «الغريب»، كان هذا الدافع غائباً بدرجة كبيرة في القرن الثامن عشر والسابع عشر عن أسئلة مثل: هل كان الهنود الأميركيون بشراً، هل كانت لهم روح ؟ تركزت اهتمامات القرن الثامن عشر على ثلاث قضايا رئيسة، هي الجدل الذي أثارته فكرة وجود طبيعة عالمية للبشر، والجدل المرتبط به عن معنى التاريخ البشري، وأخيراً النقاش الذي تولد حول قيمة وطبيعة الحضارة⁽¹⁾.

فلقد سعى روسو مثلاً إلى الإجابة عن أسئلة عن جدوى الحضارة عن طريق مقارنتها بنموذج الحياة في المجتمعات البدائية. ما الذي كان من المحتمل أن تكون عليه شاكلة حياة البشر من دون الفوائد المتنوعة للحضارة الغربية؟ هل يمكننا أن نتخذ من الشعوب الغربية التي لا تعيش في المدن في حضارات الصين وفارس نماذج لما يمكن أن يكون «الإنسان الطبيعي»؟ هل يمكن أن يكون هذا السخف هو «العبد النبيل» أو هل يمكن أن تكون حياته على درجة من السخف والخشونة والقصر مثله مثل كثيرين ممن ادعى توماس هوبز Thomas Hobbes (1588-1674م) أنهم الهنود الأميركيون⁽²⁾.

ويستمر روسو في طرح تساؤلاته: لو كان الإنسان أفضل من دون حضارة إذاً كيف يتمكن من ممارسة قدراته الطبيعية مثل العقل والاختراع دون أن يتحتم عليه أن يعيد ابتكار تلك الحضارة، التي ظهر هو نفسه من خلالها ؟ في هذه المساجلة كان جديراً بالتوضيح أن ضد

(1) المصدر السابق نفسه، ص 204-205.

(2) المصدر السابق، ص 207-208.

الحضارة الأوروبية كان «العبد النويل» أو «الغريب» والذي بحكم تعريفه يعيش أكثر اقتراباً من الطبيعة⁽¹⁾.

الطبيعة التي خضعت للإرادة الغربية من خلال عمليات التمدن والتحضّر الطويلة الأمد، والتي غدت بموجبها الذات الغربية فيما بعد المقياس الحقيقي للتطور، وغدت منجزاتها المعيار الرئيس في تقويم حضارة ما أو ثقافة ما، وبالتالي لا فرصة لسائر الحضارات القائمة آنذاك أو حتى الآن إلا الالتحاق بركب حضارتها والاندماج الثقافي ضمن مكوناتها وأنساقها.

وبعبارة أخرى وعلى حدّ تعبير جورج لارين فإن الهوية الثقافية الأوروبية ومن منظور عقل الحداثة والنظريات العالمية ترى ذاتها المركز حيث يصنع التاريخ، وتحدد كل فرد آخر بصفته خارجياً أو محيطاً، وترى العقل محرر البشرية من التعاسة، وأن المعرفة والعلم مفاتيح للتربية والتقدم، وترى العالم غير الأوروبي عالماً تعسّاً طالما أن العقل الأداتي والعلم لم يتطور إطلاقاً هنا. وفي العالم الخارجي المتسع، على أوروبا رسالة لتحقيقها... ولتحقيق هذه الرسالة بحثت النظريات العالمية الآخر من جانب الذات العقلانية الأوروبية، واختزلت كل الاختلافات الثقافية إلى وحدتها الخاصة. وهذه هي صورة المركزية الأوروبية التي وصفت بها الحداثة وخلعت عليها نوعاً من العنصرية والاستعمار⁽²⁾.

إن تاريخ الثقافة الأوروبية منذ القرن السادس عشر فصاعداً يؤكد بوضوح تنامي الوعي بمعرفة جديدة ومتجددة. ويرتبط هذا الوعي ارتباطاً وثيقاً بالتحوّلات الاقتصادية والسياسية التي جرت آنذاك. وحفّرت هذه التحوّلات، مثلما أثارتها، رحلات الاستكشاف الكوكبية

(1) المصدر السابق، ص 208.

(2) جورج لارين، الأيديولوجيا والهوية الثقافية/ الحداثة وحضور العالم الثالث، ترجمة: د. فريال حسن خليفة، مكتبة مدبولي، مصر، ط 1، 2002م، ص 78.

على مدى هذه الفترة، وطرأت على الأساليب القديمة من التفكير بشأن العالم والمجتمع والقيم والمصير البشري تطورات جذرية على مدى القرون التالية مباشرة للنهضة. ويمثل الاستشراق - وفق هذا الإطار- جهداً عادياً ملازماً للبحث المتسع باطراد عن المعرفة، بما يعني أنه قسمة مميزة للحقبة الغربية الحديثة، وهو ما ليس بحاجة بالتالي إلى تفسير حي يتجاوز ما يمكن أن نفسر به توسع الروح العلمي في العموم. وتأسيساً على ذلك يرى الباحث جي. جي. كلارك أن ظهور الاستشراق⁽¹⁾ في القرن التاسع عشر كمبحث دراسي مقترن بالدقة العلمية (على حد زعمه) شاهدٌ حيٌ يدعم هذه النظرة العامة⁽²⁾.

تاريخياً وثقافياً، ثمة فرق كمي، كما أن ثمة فرقاً نوعياً، بين الانشباك الفرنسي- البريطاني، في الشرق، وانشباك أي دولة أوروبية وأطلسية أخرى- في مرحلة الهيمنة الأميركية بعد الحرب العالمية الثانية، ومن ثم، فإن يتحدث المرء عن الاستشراق هو أن يتحدث أساساً، وإن لم يكن حصرياً، عن مشروع ثقافي بريطاني وفرنسي، مشروع تضمّ أبصاره عوالم متباينة تباين الخيال نفسه، الهند وشرقي المتوسط بأكملهما، ونصوص الكتاب المقدس وأقاليم الكتاب المقدس، وتجارة التوابل، والجيوش الاستعمارية، والتراث الطويل من الإداريين الاستعماريين، وقدراً ضخماً من تراث البحث، وأعداداً لا تحصى من الخبراء و«المُساعدين» الشرقيين، وجهاز أستاذية شرقية، وكوكبة من الأفكار الشرقية (الاضطهاد الشرقي، الأبهة الشرقية، القسوة الشرقية، الحواسية الشرقية)، وعدداً كبيراً من الملل، والفلسفات، والحكم الشرقية المدجّنة للاستخدام المحلي الأوروبي- في قائمة يمكن أن تُمدّد إلى ما لا نهاية⁽³⁾.

(1) لتفاصيل أكثر حول نشأة الاستشراق، ينظر: كتاب جاذبية الإسلام، لمكسيم رودنسون، مصدر سابق، ص 41-60.

(2) ينظر: جي. جي. كلارك، التنوير الآتي من الشرق/ اللقاء بين الفكر الآسيوي والفكر الغربي، ترجمة: شوقي جلال، سلسلة عالم المعرفة، الكويت ع(346)، ديسمبر 2007م، ص 42.

(3) إدوارد سعيد، الاستشراق/ المعرفة. السلطة. الإنشاء، ترجمة: كمال أبو ديب، نشر مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط2، 1984م، ص 39.

وبصورة عامة، فلقد تمكن إدوارد سعيد، عن طريق دمج أفكار فوكو حول التشكيلات الاستطرازية بأفكار غرامشي حول السيطرة، من إنشاء عمل نقدي متين شكك في صحة الاستشراق. فقد رفض سعيد ادعاءات المستشرقين بأن عملهم عمل بحثي محايد- موضوعي قام بدراسة الشرق. فقد جادل بأن الاستشراق بات ممكناً عبر التوسع الاستعماري إلى العالم الإسلامي وأنه في الوقت نفسه مكّن هذا التوسع من الحصول. لذلك كان العمل الاستشراقي مرتبطاً بشكل لا يمكن فصله عن السيطرة الاستعمارية على أجزاء واسعة من العالم الإسلامي.

وعلى الرغم من ذلك كله فلقد حاول الغرب إعادة إنتاج الآخر (صورته/حضارته/الموقف منه) عبر التخلص من الدراسات الفلسفية الاجتماعية المجردة والمنتجة في ظلال الأنوار، والشروع بدراسات أكاديمية علمية مبنية على المعلومة الصحيحة وذلك عبر الأنثروبولوجيا⁽¹⁾ هذه المرة.

ولكن جيرار ليكلرك يرى خلاف ذلك مؤكداً على أن الأنثروبولوجيا ما هي إلا استعمار «علمي» يسهل الحركة الاستعمارية الناشطة جداً في القرن التاسع عشر. إنها ممارسة جديدة، تماماً كالاستعمار العلمي، ولا معنى لها إلا من داخل «الاستعمار العلمي»، غرضها هو إما وصف شروط الوجود البدائي في المرحلة السابقة على دخول الاستعمار، بحيث تصف نمط هذا الوجود قبل أن يصار للقضاء عليه، وأما أنها ستتناول وصف شروط هذا الوجود كما خلقه الاستعمار، وبذلك يتحول حقلها إلى دراسة «التغير الاجتماعي» أو «الثقاف»⁽²⁾.

(1) لتفاصيل أكثر حول النشأة الأكاديمية للأنثروبولوجيا ينظر الفصل الرابع من كتاب: قصة الأنثروبولوجيا، للدكتور حسين فهمي، مصدر سابق، ص 116-145.
(2) جيرار ليكلرك، الأنثروبولوجيا والاستعمار، ت: د. جورج كتورة، معهد الإنماء العربي، بيروت، ط1، 1982م، ص 32-33.

إن عملية إنتاج الآخر لها تعتمد على كشف واستخراج كل حيثياته الإنسانية والثقافية والاقتصادية والبيئية كيما يسهل تدجينه وتلويينه حسب رغبات الحاكم السياسي - الاستعماري، كيما يستتبع هذا الطرف (المستعمر) المركز (المستعمر) ويتساءل لكليرك: على ماذا تقوم الرؤية الإمبريالية للعالم من قبل الدول/المركز؟ لاشك أن دور الأنثروبولوجيا في هذه الرؤية لم يتعدَّ الدور الذي تقوم به كل بنية فوقية. وعلى أية حال لم يكن ذلك الدور الذي يسوغ كل توسع اقتصادي غربي؛ فالاستعمار ليس توسعاً وسيطرة اقتصادية فحسب، إنه سيطرة وإثنية مركزية ثقافية، والاستعمار يفترض الإيمان بثقافة واحدة⁽¹⁾.

ومن الصعوبة بمكان فصل تجربة الأنثروبولوجيا في تعاملها مع الآخر عن تجربة الاستشراق المنبع الأصلي لتجربة ومدرجات هذا العلم. إذ يرى ريتشارد أنطون Richard Antoun أن تطور أنثروبولوجيا الشرق الأوسط مرَّ بأربع مراحل: مرحلة سيطرة المستشرقين، ومرحلة سيطرة الرحالة والإداريين السياسيين (في العصر الاستعماري، أي الأنثروبولوجي) الهواة- ومرحلة سيطرة علماء الأنثروبولوجيا المحترفين، وأخيراً مرحلة سيطرة الأنثروبولوجيين المحليين. ويعنينا هنا بالتحديد أن الاستشراق كان المصدر الأول للبدايات التأممية الأنثروبولوجية في الشرق الأوسط. في تلك المرحلة كان المستشرقون (حتى منتصف القرن التاسع عشر تقريباً) علماء للعهدين القديم والجديد، أو مبشرين، وفي أفضل الحالات علماء بالدراسات السامية أو هواة رومانطيين، ومن أجل ذلك يربط إدوارد سعيد بين الاستشراق والأنثروبولوجيا ليس في النشأة، بل في المادة التي اعتمداها، ثم إنهما علما استعماريان، أو نشأ في مرحلة الاستعمار ولخدمته⁽²⁾.

(1) المصدر السابق، ص35.

(2) رضوان السيد، الصراع على الإسلام، الأصولية والإصلاح والسياسات الدولية، دار الكتاب العربي، بيروت، 2005م، ص106.

مثلاً افترضت العولمة وفرضت لوناً ثقافياً عالمياً واحداً، حاولت من خلاله صهر كل الألوان الثقافية الأخرى المنتمية إلى حضارات عدة، ولعلها كانت هي الإمبريالية على حد تحليلات لكيرك وذلك عبر استعمارها للعالم من خلال القوى الاستعمارية الغربية⁽¹⁾، التي أرغمت الكثير من البلاد التي استعمرتها على التحديث والغربنة في شتى مناحي حياتها⁽²⁾، وحاولت جاهدة إنتاج الآخر على صورة ذاتها، أي سعت نحو سحب الحضارات المستعمرة إلى تجانس³ ثقافي مع مركباتها الثقافية العامة.

(1) ينظر: جيرار ليكلرك، العولمة الثقافية / الحضارات على المحك، مصدر سابق، ص179.

(2) ينظر لتفاصيل أكثر: جورج بالاندييه، الأنثروبولوجيا السياسية، مصدر سابق، ص123-139.

* يعد التجانس Homogenization (التجانسية) مصطلحاً أساساً في دراسات العولمة. فيقصده على المستوى الأساس أن الأشياء تصبح نفسها تماماً. وقد يكون هذا أمراً سياسياً أو ممارسات ثقافية أو اللغة أو المنتجات الاستهلاكية أو الأيديولوجيات أو وسائل الإعلام أو الترفيه...، ويتضح التجانس جلياً في انتشار الرأسمالية والسياسات الليبرالية، ويهتم الكثيرون بمحاولة الإجابة عن أسئلة مثل أي من هذه الممارسات يعد مهيماً وكيف ومتى نشأ. فيكتب توملينسون مثلاً حول ما الذي يفكر به الآخرون حيال العولمة في ما يتعلق بالإمبريالية الثقافية. وهكذا تعد قضايا القوة أمراً مركزياً بالنسبة إلى التجانس، وقد تم وضع القوة النسبية في أطر نظرية سياسية طبيعية وكذلك من خلال الطبقات، وغالباً في ما يتعلق بدول وجماعات، المركز والهامش على وجه التحديد؛ ولتفاصيل أكثر حول هذا المصطلح وصلاته مع اصطلاحات أخرى، ينظر: كتاب: العولمة / المفاهيم الأساسية، مصدر سابق، ص87-88.

المصادر

- (1) إريك هوبزباوم، عصر الثورة /أوروبا (1789 – 1848م)، ت: د. فايز الصياغ، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2007م.
- (2) إريك هوبز باوم، عصر رأس المال (1848-1875م)، ت: د. فايز الصياغ، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2008م.
- (3) إدوارد سعيد، الاستشراق/المعرفة. السلطة. الإنشاء، ترجمة: كمال أبو ديب، نشر مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط2، 1984م.
- (4) أنابيل موني، بيتسي إيفانز، العولمة / المفاهيم الأساسية، تحرير: آسيا دسوقي، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط1، 2009م.
- (5) أنتوني غدنز، الرأسمالية والنظرية الاجتماعية الحديثة، ت: فاضل جنتكر، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 2009م.
- (6) أنتوني غدنز، علم الاجتماع، ت: د. فايز الصياغ، المنظمة العربية للترجمة، ط4، بيروت، 2005م.
- (7) أغنر فوج، الانتخاب الثقافي، ت: شوقي جلال، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2007م.
- (8) الطاهر، لبيب، محرراً لندوة: صورة الآخر/العربي ناظراً ومنظوراً إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 1999م.
- (9) أدريانو بينايون، العولمة نقيض التنمية، ت: جعفر علي حسين السوداني، بيت الحكمة، بغداد، 2002 م.
- (10) أيكه هولتكراانس، قاموس مصطلحات الإثنولوجيا والفولكلور، ت: د. محمد الجوهري، د. حسن الشامي، دار المعارف بمصر، ط1، 1972 م.
- (11) بشارة خضر، أوروبا والوطن العربي (القراية والجوار)، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 1993 م.
- (12) بارينجتون مور، الأصول الاجتماعية للدكتاتورية والديمقراطية / اللورد والفلاح في صنع العالم الحديث، ت: أحمد محمود، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2008م.
- (13) بيل اشكروفت وآخرون، الرد بالكتابة/ النظرية والتطبيق في آداب المستعمرات القديمة، ترجمة: د. شهرت العالم، المنظمة العربية للترجمة، نشر مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2006م.
- (14) تركي الحمد، حين تختلط المفاهيم، مجلة قضايا إسلامية معاصرة، العددان، 24، 25، مركز دراسات فلسفة الدين، بغداد، 2003 م.

- 15) تزفيتان تودوروف، روح الأنوار، ت: حافظ قويعة، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2007م.
- 16) جورج بالاندييه، الأنثروبولوجيا السياسية، ت: جورج أبي صالح، مركز الإنماء القومي، بيروت، ط1، 1986م .
- 17) جيرار لكليرك، العولمة الثقافية/الحضارات على المحك، ت: جورج كتورة، دار الكتاب الجديد المتحدة، طرابلس، ط1، 2004م.
- 18) جيرار لكليرك، الأنثروبولوجيا والاستعمار، ت: جورج كتورة، معهد الإنماء العربي، بيروت، ط1، 1982م.
- 19) جون ستيل جوردون، إمبراطورية الثروة / التاريخ الملحمي للقوة الاقتصادية الأمريكية، ج1، ت: محمد مجد الدين باكير، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد 357، 2008م.
- 20) جون توملينسون، العولمة والثقافة/تجربتنا عبر الزمان والمكان، ت:د. إيهاب عبد الرحيم محمد، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد 354، أغسطس، 2008م.
- 21) جاك لومبار، مدخل إلى الإثنولوجيا، ت: حسن قبيسي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1997م .
- 22) جورج لارين، الأيديولوجيا والهوية الثقافية/ الحداثة وحضور العالم الثالث، ترجمة: د. فريال حسن خليفة، مكتبة مدبولي، مصر، ط1، 2002م.
- 23) جي. جي. كلارك، التنوير الآتي من الشرق / اللقاء بين الفكر الآسيوي والفكر الغربي، ترجمة: شوقي جلال، سلسلة عالم المعرفة، الكويت ع (346)، ديسمبر 2007م.
- 24) ج. برونوفسكي، ارتقاء الإنسان، ترجمة د. موفق شخا شير، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ع (39)، مارس (آذار) 1981م.
- 25) جيمس بيرك، عندما تغير العالم، ترجمة: ليلى الجبالي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت ع(185)، مايو (آيار) 1994.
- 26) حسين فهميم، قصة الأنثروبولوجيا/فصول في تاريخ علم الإنسان، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد 98 شباط، 1986م .
- 27) حسن الضيقة، الظاهرة الرأس مالية/نظرة نقدية في التاريخ والأيديولوجيا، دار المنتخب العربي، بيروت، ط1، 1994م.
- 28) حسن حنفي، مقدمة في علم الاستغراب، الدار الفنية للنشر والتوزيع، القاهرة، 1991م.
- 29) رضوان السيد، الصراع على الإسلام، الأصولية والإصلاح والسياسات الدولية، دار الكتاب العربي، بيروت، 2005م.

- (30) داريوش شايغان، ماثورة الدينية/الحضارات التقليدية في مواجهة الحداثة، ت: دكتور محمد الرحموني، دارالساقى بيروت، ط1، 2004م.
- (31) دوريندا أوترام، التنوير، ت: ماجد موريس إبراهيم، دار الفارابي ومؤسسة آل مكتوم، بيروت، ط1، 2008م .
- (32) دنيس كوش، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ت: منير السعيداني، المنظمة العربية للترجمة، ط1، 2007م.
- (33) ديفيد سي. كورتن، عندما تحكم الشركات العالم، ت: د. محمد درويش، دار المأمون للترجمة والنشر، بغداد، 2007م.
- (34) سيد ياسين، في مفهوم العولمة، ورقة عمل قدمت إلى ندوة: (العرب والعولمة)، مركز دراسات الوحدة العربية، ط3، 2000م .
- (35) صموئيل هنتغتون، صدام الحضارات/إعادة صنع النظام العالمي، ت: طلعت الشايب، القاهرة، كتاب سطور، 1998م.
- (36) علي حرب، تواطؤ الاضداد، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط1، 2008م .
- (37) عبد الغني عماد، سوسيولوجيا الثقافة/المفاهيم والإشكاليات من الحداثة إلى العولمة، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 2006م.
- (38) عبد الخالق عبد الله، العولمة/جذورها وفروعها وكيفية التعامل معها، مجلة عالم الفكر، الكويت، مجلد 28، عدد 2، أكتوبر-ديسمبر، 1999م.
- (39) عبد الله إبراهيم، نقد التمرکزات الثقافية في العالم المعاصر، مجلة قضايا إسلامية معاصرة، السنة السابعة، العدد 23، مركز فلسفة الدين، بغداد، 2003م.
- (40) غيرترود هيلمفارب، الطرق إلى الحداثة، التنوير البريطاني والتنوير الفرنسي والتنوير الأمريكي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ع (367)، سبتمبر 2009.
- (41) د. فؤاد مرسي، الرأسمالية تجدد نفسها، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ع (147)، مارس (آذار)، 1990م.
- (42) قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد 49، 1990م .
- (43) قيس النوري، مدارس الأنثروبولوجيا مطابع دار الحكمة للطباعة والنشر، 1991م.
- (44) كامل وزنة، آدم سميث/قراءة في اقتصاد السوق، معهد الدراسات الإستراتيجية، بغداد، ط1، 2007م.
- (45) كرين برينتون، تشكيل العقل الحديث، ت: شوقي جلال، مكتبة الأسرة، طبع هبة الكتاب المصري، 2002م.

- (46) ليو شتراوس، جوزيف كروبي، تاريخ الفلسفة السياسية، ج2، ت: محمود سعيد، محمود سيد أحمد، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ط1، 2005م .
- (47) ميلفيل.ج. هرسكوفيتز، أسس الأنثروبولوجيا الثقافية، ت: د. رباح النفاخ، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1973م.
- (48) محمد حسنين هيكل، الزمن الأمريكي/من نيويورك إلى كابل، الشركة المصرية للنشر العربي والعالمي، القاهرة، ط4، يونيو، 2003م.
- (49) محمد الأطرش، العرب والعولمة، ما العمل؟، ورقة عمل قدمت إلى ندوة : العرب والعولمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط3، 2000م .
- (50) نايف علي عبيد، العولمة والعرب، مجلة المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، عدد 221، 1997م .

- 51) Conrad Phillip Kottak , Cultural Anthropology ,published by : McGraw Hill , America ,eleventh edition , 2006 .
- 52) Gould J.and Kdb , M.L. Adictionary of Social Sciens es , printed , U.S.A. , Collier , Maeminan , CaudaLtd , Copripht , 1965.
- 53) Raymond scupln, Christopher. Decorse, Anthropology/ A GLOBAL PERSPECTIVE, prentice – Hall. Inc. New Jersey, Fourth Edition, 2001.

من إصدارات صفحات للدراسات والنشر

نحو فكر حضاري متجدد

سورية - دمشق - ص.ب: 3397

هاتف 2213095 تليفاكس: 00963112233013

www.darsafahat.com info@darsafahat.com

- (1) فلسفة الفن وعلم الجمال، دعلي شناوة وادي، 2011م.
 - (2) الأعياد في حضارة بلاد وادي الرافدين، راجحة خضر عباس النعيمي، 2011م.
 - (3) القائد السياسي في التاريخ المعاصر (دراسة سياسية تاريخية في الزعامة وعوامل ظهورها) أ.د.موسى محمد آل طويرش، 2011م.
 - (4) زمن الصراع على الإسلام التدافع الكوني حول أنماط التدنّين الإسلامي بين الشرق والغرب، منتصر حمادة، 2011م.
 - (5) العصر الأيوبي - قرن من الصراعات الداخلية، د.منذر الحايك، تقديم د.سهيل زكار، 2011م.
- عندما توفي نور الدين لم تفقد الأمة المشروع بفقدان القائد، فقد جاء صلاح الدين، الذي كان مسكوناً بروح سلفه، ليحقق الجزء الأكبر من مشروع التحرير، مستفيداً من الوحدة. ولكن البيت الأيوبي، الذي قام حكمه أساساً على مشروع الدولة الموحدة والجهاد للتحرير، تناسى المشروع بوفاة صلاح الدين، وغدت الشام منقسمة، لا تتوحد إلا بتحالفات هشة ضد مصر، ولم يكن صلاح الدين هو من قسم الدولة التي جهد لتوحيدها، ولكن الإقطاع العسكري، وهو النظام السائد وقتها، كان سبب التجزئة، فب وفاة السلطان تحول الإقطاعيات إلى ممالك. لقد كانت مرحلة الانقسام الأيوبي مرحلة عقيمة، على الصعد كلها، ما منح الفرنجة أعواماً طويلة أخرى، أمضوها في بلادنا، ليس لقوتهم التي ارتفعت بعد حطين، بل لضعف الكيانات السياسية الأيوبية وتخاذلها، لكن من جهة أخرى، ومع أن ملوك البيت الأيوبي تخلوا عن السياسة الهجومية للتحرير، فلا بد أن نشير إلى دفاعهم القوي في وجه الفرنجة، حيث تمكنوا من صد حملات كبرى، كان ممكناً أن تقلب وجه الشرق العربي المسلم، وعلينا أن لا نهمهم كل أوزار زمانهم، فقد كانوا جزءاً من مجتمعهم بكل ما فيه من فضائل ونقائص. ومع أن الأيوبيين كانوا أكراداً في أصلهم، فقد عدوا أنفسهم عرباً بثقافتهم ودينهم، فأحبوا اللغة العربية، وقربوا إليهم الشعراء والأدباء، وعقدوا مجالس الفقه، وكانوا رواة تسند إليهم بعض الأحاديث الشريفة، كما تميزوا بالبساطة، وربما التقشف، فلم تعرف بلاطاتهم التقاليد الملكية، أو أبهة الملك. إن تاريخ البيت الأيوبي لا يبدو واضحاً من سير ملوكه، أو تدوين مجريات أحداثه، بل يحتاج على نحو ضروري إلى دراسة العلاقات الداخلية بين ملوك البيت وسلطينه وتحليلها، ودور الأمراء، والقوى العسكرية، وشبه العسكرية، وتأثير كل هؤلاء في مجريات تلك العلاقات، وهذه هي الميزة الجديدة التي انفرد بها هذا الكتاب، والتي لم يتطرق إليها البحث سابقاً وفق علمي.
- (6) الحرب ضد الله، آرشي أوغوستاين، ترجمة محمد الشماخ، مراجعة وتقديم د.منذر الحايك، 2011م.

أنا روماني كاثوليكي، وأعمل كمحام في محكمة الجنايات في جنوب أفريقيا. عندما تم احتلال أفغانستان، وبدأ غزو العراق، إضافة لما تقوم به إسرائيل ضد الفلسطينيين، قمت بقراءة متمعة لنص

القرآن الكريم، لأنني أردت أن أعرف فيما إذا كان الإسلام سوف يواجه مصير المسيحية نفسه أم لا. فاكشفت أنه من السهل ربط الآيات القرآنية بالوضع العالمي الراهن، وأكثر من هذا، فهم المستقبل. بعد تدمير برج التجارة العالمية بدأت الولايات المتحدة حربها على "الإرهاب" ويُدعى البعض بأنها كانت محتاجة إلى ذريعة لتحقيق مغامراتها ضد ما سمي "الإرهاب الإسلامي". ولا أعتقد بأن هذه الكذبة كانت ضرورية لكسب تأييد الشعب الأمريكي، أو الحصول على الدعم الدولي، فبغض النظر عن الأمم المتحدة، والرأي العام نفذت القوات الأمريكية والبريطانية ما يحلو لها. قُصف المسلمون وقتلوا واحتُلت أراضيهم، وأصبحت الديمقراطية المصممة على النمط الغربي هي الممكنة. لذا كان على العادات والمبادئ الإسلامية أن تلغى. وبالتالي فأني مقاومة للمعايير الجديدة سوف تعتبر "إرهاباً". فالحرب ضد المسلمين ليست فقط حرباً ضد شخص المسلم أو ممتلكاته، لكنها حربٌ ضد معتقده وإيمانه. ولذلك فإن "اغتيال الإسلام"، هو البرنامج، وأنا مقتنع تماماً بأن هزيمة الإسلام كمعتقد غير ممكنة أبداً. ولن تقنع أي دعاية غربية المسيحيين المخلصين بأن الحرب ضد الإسلام مبررة. والتزاماً بمصداقيتي الاحترافية وديني المسيحي، ولذلك فأني لا أعتذر عن الكتابة بكل صراحة لأن الحقيقة ليست مؤذية، بل على العكس يمكنها أن تشفي.

(7) شيفرة ناستراداموس الحرب العالمية الثالثة 2006-2012، مايكل راثفورد - ترجمة وتعليق محمد الواكدا 2011م.

هل أنت مستعدٌ لحرب عالمية ثالثة؟ عندما تأتي أخيراً تلك اللحظة الحاسمة، هل سيكون لديك الوقت لتتذكر ماذا كان بإمكانك أن تفعل لإيقافها؟ أي هراء مربع ومثير للشفقة هو ذلك؟ هل هذا تنبؤ آخر مشؤوم بتلف الأنظمة الإلكترونية في العام 20؟ إنها مبالغة كبيرة حول لا شيء، هناك ثلاثة أنواع من المجموعات. أولاً، هناك الشعوب الذين هم مسبقاً ضحايا للحروب الرئيسية الآن كشعب فلسطين والعراق وأفغانستان وصربيا وكولومبيا، المجموعة الثانية هي أولئك الذين يخططون ويتمنون تنفيذ الحروب النووية، المجموعة الثالثة هي الأشخاص الذين لاحظوا قدومها وكان لديهم البصيرة للانتقال إلى مواقع بعيدة في نصف الكرة الأرضية الجنوبية. ماذا ستفعل لو أنك حصلت على معلومات تؤكد لك حقاً بأن الحرب العالمية الثالثة هي على وشك أن تبدأ في بضعة شهور؟ ما الخطوات التي ستتخذها لتهيئة نفسك؟ فماذا ستفعل...؟

(8) تقنيات وآليات الإبداع الأدبي - صاحب الربيعي 2011م.

اللغة فضاء من الكلمات والرموز والصور والمعاني المجردة والمتوارثة التي تختزنها الذاكرة للدلالة على مكونات المحيط على نحو مجرد، لكنها لا تعبر عن ماهيتها بدقة من دون وجود تقنيات وآليات لربط الكلمات والرموز والمعاني أو فصلها لصياغة الفكرة التي توجز المعنى. الفكرة المنتجة مخلوقة، أنتجها خالق يمتلك ناصية اللغة وآلياتها، ويحسن المزاج بين الأفكار المكتسبة لإنتاج كائن (فكر) إبداعي جديد، فالخالق للأفكار مبدع وفنان ماهر، ينعت الكلمات، ويشذب الأفكار، ويعيد تشكيل الصياغات برؤى جديدة، تستمد ومضاتها الأولى من حالة اللا وعي، ويتحقق من صدقها في حالة الوعي بعد أن تجري مزاجتها مع الأفكار المكتسبة التي تختزنها الذاكرة لإنتاج الفكرة الإبداعية. تعد النتاجات الإبداعية روافد معرفية مختلفة المنابع، تصب في الحضارة الإنسانية، فهي توجز محطات التاريخ في ذاكرة الحاضر، لتتير المستقبل، فالمبدع بمنزلة كنز معرفي، يجسد مقومات الأمة عبر نتاجاته الإبداعية التي تساهم في رقي الحضارة الإنسانية وسموها. يبحث الكتاب في فصوله الثلاثة ومحاورة الرئيسة والفرعية، اللغة والمعرفة (اللغة والرفد المعرفي، تقنيات الشعر وآلياته)، والإبداع والنقد الأدبي (دور الإبداع الأدبي في التواصل الحضاري، الفنون الإبداعية والنقد)، وأخيراً الثقافة والنخبة (الثقافة والمثقف، دور النخب الثقافية).

القرآن الكريم، لأنني أردت أن أعرف فيما إذا كان الإسلام سوف يواجه مصير المسيحية نفسه أم لا. فاكشفت أنه من السهل ربط الآيات القرآنية بالوضع العالمي الراهن، وأكثر من هذا، فهم المستقبل. بعد تدمير برج التجارة العالمية بدأت الولايات المتحدة حربها على "الإرهاب" ويُدعى البعض بأنها كانت محتاجة إلى ذريعة لتحقيق مغامراتها ضد ما سمي "الإرهاب الإسلامي". ولا أعتقد بأن هذه الكذبة كانت ضرورية لكسب تأييد الشعب الأمريكي، أو الحصول على الدعم الدولي، فبغض النظر عن الأمم المتحدة، والرأي العام نفّذت القوات الأمريكية والبريطانية ما يحلو لها. قُصف المسلمون وقتلوا واحتُلت أراضيهم، وأصبحت الديمقراطية المصممة على النمط الغربي هي الممكنة. لذا كان على العادات والمبادئ الإسلامية أن تلغى. وبالتالي فأني مقاومة للمعايير الجديدة سوف تعتبر "إرهاباً". فالحرب ضد المسلمين ليست فقط حرباً ضد شخص المسلم أو ممتلكاته، لكنها حربٌ ضد معتقده وإيمانه. ولذلك فإن "اغتيال الإسلام"، هو البرنامج، وأنا مقتنع تماماً بأن هزيمة الإسلام كمعتقد غير ممكنة أبداً. ولن تقنع أي دعاية غربية المسيحيين المخلصين بأن الحرب ضد الإسلام مبررة. والتزاماً بمصداقيتي الاحترافية وديني المسيحي، ولذلك فأني لا أعتذر عن الكتابة بكل صراحة لأن الحقيقة ليست مؤذية، بل على العكس يمكنها أن تشفي.

(7) شيفرة ناستراداموس الحرب العالمية الثالثة 2006-2012، مايكل راثفورد - ترجمة وتعليق محمد الواكدا 2011م.

هل أنت مستعدٌ لحرب عالمية ثالثة؟ عندما تأتي أخيراً تلك اللحظة الحاسمة، هل سيكون لديك الوقت لتتذكر ماذا كان بإمكانك أن تفعل لإيقافها؟ أي هراء مربع ومثير للشفقة هو ذلك؟ هل هذا تنبؤ آخر مشؤوم بتلف الأنظمة الإلكترونية في العام 20؟ إنها مبالغة كبيرة حول لا شيء، هناك ثلاثة أنواع من المجموعات. أولاً، هناك الشعوب الذين هم مسبقاً ضحايا للحروب الرئيسية الآن كشعب فلسطين والعراق وأفغانستان وصربيا وكولومبيا، المجموعة الثانية هي أولئك الذين يخططون ويتمنون تنفيذ الحروب النووية، المجموعة الثالثة هي الأشخاص الذين لاحظوا قدومها وكان لديهم البصيرة للانتقال إلى مواقع بعيدة في نصف الكرة الأرضية الجنوبية. ماذا ستفعل لو أنك حصلت على معلومات تؤكد لك حقاً بأن الحرب العالمية الثالثة هي على وشك أن تبدأ في بضعة شهور؟ ما الخطوات التي ستتخذها لتهيئة نفسك؟ فماذا ستفعل...؟

(8) تقنيات وآليات الإبداع الأدبي - صاحب الربيعي 2011م.

اللغة فضاء من الكلمات والرموز والصور والمعاني المجردة والمتوارثة التي تختزنها الذاكرة للدلالة على مكونات المحيط على نحو مجرد، لكنها لا تعبر عن ماهيتها بدقة من دون وجود تقنيات وآليات لربط الكلمات والرموز والمعاني أو فصلها لصياغة الفكرة التي توجز المعنى. الفكرة المنتجة مخلوقة، أنتجها خالق يمتلك ناصية اللغة وآلياتها، ويحسن المزاج بين الأفكار المكتسبة لإنتاج كائن (فكر) إبداعي جديد، فالخالق للأفكار مبدع وفنان ماهر، ينعت الكلمات، ويشذب الأفكار، ويعيد تشكيل الصياغات برؤى جديدة، تستمد ومضاتها الأولى من حالة اللا وعي، ويتحقق من صدقها في حالة الوعي بعد أن تجري مزاجتها مع الأفكار المكتسبة التي تختزنها الذاكرة لإنتاج الفكرة الإبداعية. تعد النتاجات الإبداعية روافد معرفية مختلفة المنابع، تصب في الحضارة الإنسانية، فهي توجز محطات التاريخ في ذاكرة الحاضر، لتتير المستقبل، فالمبدع بمنزلة كنز معرفي، يجسد مقومات الأمة عبر نتاجاته الإبداعية التي تساهم في رقي الحضارة الإنسانية وسموها. يبحث الكتاب في فصوله الثلاثة ومحاورة الرئيسة والفرعية، اللغة والمعرفة (اللغة والرفد المعرفي، تقنيات الشعر وآلياته)، والإبداع والنقد الأدبي (دور الإبداع الأدبي في التواصل الحضاري، الفنون الإبداعية والنقد)، وأخيراً الثقافة والنخبة (الثقافة والمثقف، دور النخب الثقافية).

مقدمة في أنثروبولوجيا العولمة

هل يفرض النمو الاقتصادي توجهاً نحو الهيمنة؟ وهل أيديولوجيا الاقتصاد الغربي تفرض ذلك النزوع؟ كيف يمكن تحليل العقل الأوروبي - الاقتصادي أنثروبولوجياً؟ ولماذا أنثروبولوجيا العقل الأوروبي في تلك المراحل التاريخية كانت متوجهة إلى (الآخر) باعتباره نتاج الكشف الاقتصادي وأحد اكتشافاته الإنسانية؟ ولماذا كانت أنثروبولوجيا تحليل الذات الغربية بالنسبة لهم غائبة أو مغيبة، فهل الأنثروبولوجيا هي علم الآخر بالنسبة لهم لا علم الذات؟ وإذا كان الغرب يمتلك وعياً معرفياً (عصر الأنوار)، فلماذا كان وعيه وسلوكه في التعامل مع الداخل (مجتمعه) متناقضاً مع سلوكه أثناء تعامله مع الخارج الآخر؟ وهل العولمة ظاهرة تاريخية ملازمة لطبيعة النمو الاقتصادي لأي حضارة أم هي وقف على الحضارة الغربية فحسب وطبيعة مسارها الحضاري؟ أم أن العولمة ظاهرة موجهة اقتصادياً؟ وهل هي بعبارة أخرى الوجه الآخر للراسمالية الغربية؟

جميع كتبنا متوفرة لدى
نيك وفرات.كوم
www.nikwafarat.com

ISBN 978-993340252-5



9 789933 402525

مكتبة
دارسافاهات

www.darsafahat.com

